خواتيم سورة البقرة

ودلالاتها الإيمانية والمنهجية

تأليف

صالح بن عبد الله الدرويش

القاضي في محكمة استئناف مكة سابقاً

سلسلة بينات من الذكر الحكيم (٤)

خواتيم سورة البقرة ودلالاتها الإيمانية والمنهجية

تأليف

صالح بن عبد الله الدرويش

القاضي في محكمة استئناف مكة سابقا

ح دار العقيدة للنشر والتوزيع ، ١٤٤٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الدرويش، صالح بن عبد الله

خواتيم سورة البقرة ودلالاتها الإيمانية والمنهجية. /

صالح بن عبد الله الدرويش –ط١ - الرياض ، ١٤٤٦هـ

١٤٦ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٤ -٩٦-٨٣٧٠-٦٠٣-٩٧٨

رقم الإيداع: ١٤٤٦/٣٩٣٧

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١٠٧٧٢

ردمك: ٦ -٩٧-٨١٨٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

(١٤٤٦)

دار العقيدة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

٠٥٠٣٣١٠٠٦٧

بسم
الله
الرحمن
الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران:١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١﴾ [النساء:١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

سؤال سألت نفسي إياه قديمًا: أهل العلم يقولون: (أهل السنة والجماعة هم من كان على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه)، فما هو الذي كان عليه الحبيب ﷺ وأصحابه؟

لا يخفى أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا محبين للنبي ﷺ، وقد أخذوا العلم عنه مباشرة، وكانوا معه في غزواته، وفي سرائه وضرائه، وقد توارث الصحابة هدي النبي ﷺ، وساروا على نهجه، وقد ورد في فضلهم آيات كثيرة، **سبق ذكر جلها في كتابي: (ثناء المولى سبحانه على أصحاب نبيه ﷺ)**.

لكن يبقى السؤال:

ما هو الضابط الذي يحدد ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام؟

وقد أخذت من مشايخي أنها طاعة الله ورسوله وحبهما، واستقر هذا في القلب.

وقد مررتُ بالآيات الأخيرة من سورة البقرة، ويسر الله تعالى لي دراستها بتوسع وتأمل، وظهر لي من خلال تلك الدراسة أن الآيات الكريمة تضمنت بيان هذا الضابط الذي سيأتي في سياق هذه الدراسة، وأنه ضابط لا محيص عنه؛ لأنه نص صريح في محكم التنزيل، وأنه هو الذي كان عليه الرسل عليهم السلام جميعًا؛ لأن منهج الرسل كلهم واحد، ودينهم واحد، وهو الدين الذي ارتضاه ﷻ وشرعه لعباده، قال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[الشورى:١٣].

كما أن هذا الضابط فيه التعريف بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وبه يُعرف أهل السنة والجماعة، ومسمى الفرقة الناجية أو السلف الصالح؛ لأنه هو المنهج الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام، ومن تبعهم من سلف هذه الأمة، ومن يأتي من بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن خلال هذا الضابط المذكور في خواتيم هذه السورة يتبين الموقف ممن عظَّم القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ، وسمع لهما وخضع وانقاد لنصوصهما خوفًا من الله، ولكن قَصُر فهمه عن إدراك الصواب في تفسير بعض النصوص؛ لسبب من الأسباب، كالنشأة في بيئة معينة لم تساعده على فهم الصواب، أو المنهجية المتبعة في دراسته، أو سوء فهمه، فلم يفهم دلالة النصوص في باب الأسماء والصفات على ما ينبغي، فيلجأ إلى التأويل

أو التفويض أو التوقف مثلًا، مع اعتقاده تنزيه الله ﷻ والخضوع للنص قولًا وعملًا، ولكن ما أخطأ فيه من التأويل أو التفويض أو التوقف يظل خطأً ويقال عن فعله وقوله: بدعة، ويُنصح ويُبيَّن له الحق والسُّنة إن كان حيًّا ويُنكر عليه، ولكن لا يوصف هو بالكفر، ومثله مثل المؤمن الذي يصلي ويصوم، لكنه واقع في ذنب من الذنوب، أو في كبيرة من الكبائر، وما شابه ذلك، فلا يمكن سلب صفة الإيمان عنه، ولم يخرج من دائرة الإيمان إلى الكفر مع ورود نصوص كثيرة في الوعيد.

وهكذا حال من أخطأ في التأويل والتفويض معتقدًا التنزيه والانقياد للنصوص نحكم عليه بأنه قد أخطأ، ونرجو الله ﷻ أن يتجاوز عنه إن كان من أهل العلم والفضل وله عناية بالنصوص، ونلتمس له العذر، ولا نشنع عليه، ولا نصفه بالمبتدع، ولا نحرِّم النظر في كتبه، أو نأمر بحرقها وعدم بيعها، إلى آخر ما تندَّر به بعض من تشدَّد في هذه القضية.

كما يتبين من خلال هذا الضابط -الآتي في هذه الآيات الكريمات- أن الأمر أيسر من هذا التشدد كله؛ ويتبين فيه منهج الرسل عليهم السلام، وما كان عليه الحبيب ﷺ وأصحابه الكرام ومن تبعهم على هذا المنهج، وسار عليه؛ إذ هو منهج ينسجم مع هدي الأنبياء، وما فيه من التيسير والرأفة والرحمة، مع قبول الحق وامتثاله، ورفض الباطل واجتنابه.

بهذا الضابط والمنهج كذلك نستطيع أن نحكم على عامة المسلمين الذين يقدِّمون الوحي من الكتاب والسنة على ما سواهما، ويدخل في ذلك عامة المسلمين الذين يعيشون في مناطق لم ينتشر فيها منهج أهل السنة

والجماعة، ولم يجدوا من يرشدهم إلى إدراك الصواب في بعض المسائل، وهم مع ذلك يعظمون النصوص، فلا يحكم عليهم بأنهم مبتدعة، ما داموا يعظمون النصوص ولا يقدِّمون عليها شيئًا، ولا يلفُّون أو يدورون على النصوص فيردُّونها بعقولهم، أو بكلام فلان أو علان، من كلام علماء الكلام والمنطق الأرسطي أو المنطق الشرقي، كما يفعله كثير من الصوفية اليوم في مسألة تزكية النفس، حيث يعتمدون على ما عند الهنادكة وأهل المشرق في تهذيب ورياضة النفس، وإن شئت فقل: في تعذيب النفس، ثم تطوروا من تعذيب النفس إلى أمر آخر في منتهى الخطورة، وهو تطريب النفس بالألحان والرقص وغيره.

فيتضح بالتأمل في هذا الضابط أن هناك فرقًا بين من يردُّ النصوص بنظره العقلي المجرد، ومن اجتهد في النظر في ذات النصوص وفهمها، وقصد تنزيه المولى ﷻ، ولم يستوعب عقلُه -بسبب دراسته أو نشأته أو ضغط المجتمع- ما كان عليه السلف من الإيمان بالنص بدلالة اللغة، فالتمس ووجد له مندوحة في بعض دلالات اللغة، فوقع في التأويل ونحوه من منطلق التنزيه، وقال: هذا ما دل عليه النص، أو هذا فهمي للنص، فهذا لم يرُدَّ النص لذاته بمجرد الحكم العقلي، وإنما التبست عليه الأمور فقدَّم ما رآه حسنًا؛ لدلالةٍ من نص عام، أو بالنظر في النصوص العامة التي دلت على التنزيه أو مستندًا إلى اللغة؛ فهذا ليس مبتدعًا وإن كان ما يقوله بدعة.

أما من ابتدر إلى رد النصوص ابتداءً؛ لأنها تخالف ما قرره الفلاسفة والمتكلمون فهذا هو المبتدع، وهذا هو مبدأ الانحراف حيث أخضع النصوص للعقل من غير مستند، وتمحل التأويل من منطلقات أهل الفلسفة

والكلام.

ويمكن أن نستدل على ذلك بحديث الثلاثة الصحابة الذين وقع منهم التشديد على أنفسهم في السلوك؛ فهذا اختار أن لا يتزوج؛ لكي يتفرغ للطاعة والعبادة، وذاك اختار أن لا ينام، بل يحيي الليل كله في العبادة، والثالث أراد أن يصوم الدهر كله؛ فبيَّن لهم ﷺ منهجه، وأخبرهم أنه هو أخيرهم وأعلمهم بالله وأتقاهم له، وأنكر عليهم التشدد، وقال: «**فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[(١)]، فهذا الذي فعلوه ابتداع في السلوك؛ لأنهم خالفوا هدي الحبيب ﷺ واتباع سنته، فما فعلوه بدعة لكنهم ليسوا مبتدعة؛ لأنهم أخطأوا عن اجتهاد وقصد حسن.

إن هذا المنهج يحتم علينا النظر في سبب الخطأ والقصد منه قبل الحكم على الخطأ نفسه؛ فإن كان السبب هو رد النصوص وتحكيم العقل؛ فهذا ابتداع ولا ريب، وإن كان السبب هو شبهة طرأت -مما سبق بيانه- فهذا يُلتمس له العذر قدر الاستطاعة، ونحن لم يكلفنا الله ﷻ بالحكم على العباد، ولكن ننظر إلى الأقوال والأفعال، ونحذر من الأخطاء، فنقول: أخطأ في كذا وكذا، لكن كثيرًا مما قاله في كتبه وحرره واجتهد فيه موافق للنصوص، وقد خالف في بعض الصفات الخبرية أو غير الخبرية.. إلخ.

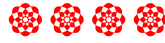
فلا بد لطالب العلم أن يدرك هذه المسألة قبل أن يخوض في الحكم على عباد الله؛ فإن الله ﷻ هو الذي يحاسب خلقَه يوم القيامة، ونحن واجبنا بيان الأخطاء، وردُّها بالدليل الشرعي.

---

(١) صحيح البخاري (٧/ ٢) برقم (٥٠٦٣)، صحيح مسلم (٢/ ١٠٢٠) برقم (١٤٠١) عن أنس ﷺ.

أحببت أن أتحدث عن هذه المسألة؛ لكثرة اللَّغط الحاصل فيها من قبل ثلاثين سنة، وهكذا ما أُثير في الآونة الأخيرة في هذا العام، عام (١٤٤٥هـ)، والله أعلم.

وقبل الدخول في بيان هذا الضابط وتفصيله لا بد من تمهيد بين يدي ذلك، في إيضاح بعض التعاريف التي تتعلق بموضوعنا.



تمهيد

تعريف السلف:

السلف لغة: مشتق من (سَلَفَ)، وسَلَفُ الرجل: كل من تقدمه من آبائه وقرابته، والجمع: أَسْلَافٌ، وسُلَّافٌ[(١)].

وقال ابن فارس: السين واللام والفاء أصل يدل على تقدُّم وسَبْق، من ذلك السَّلَفُ: الذين مضوا، والقوم السُّلَّاف: المتقدمون[(٢)]. ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح[(٣)].

فلفظ السلف في اللغة يعم من مضى وسبق وتقدَّم، سواء كان من القرابة أو غيرهم.

وعلى هذا فالسلف في الاصطلاح: هم الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان، وسار على نهجهم في التسليم والانقياد لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

تعريف السنة:

السُّنة لغة: مشتقة من: سَن يَسِن، ويَسُن سَنًّا، وهي الطريقةُ والسِّيرة، حسنة كانت أو قبيحة. يقال: سَنَنُ الطَّرِيقِ وسُنَنُه وسِنَنُه وسُنُنُه: نَهْجُه[(٤)].

والسُّنَّة في اصطلاح المُحَدِّثِينَ هي: كل ما أُثِرَ عن النبي ﷺ من قول، أو

---

(١) انظر: القاموس المحيط (ص:٨٢٠)، مختار الصحاح (ص:١٥٢)، الكليات (ص:٤٩٤).

(٢) انظر: مقاييس اللغة (٣/ ٩٥).

(٣) انظر: لسان العرب (٩/ ١٩٥).

(٤) انظر: مختار الصحاح (ص:١٥٥)، لسان العرب (١٣/ ٢٢٥).

فعل، أو تقرير، أو صِفة خَلقية أو خُلُقيَّة، أو سيرة. والسُنَّة بهذا المعنى مرادفة للحديث النبوي(١).

تعريف الجماعة:

الجماعة لغة: مشتقة من الجمع، وهو: ضم الشيء إلى الشيء، وتأليف المتفرق. يقال: (جَمَعَ) الشيء المتفرِّق (فَاجْتَمَعَ)، و(تَجَمَّعَ) القوم: اجتمعوا من هنا وهنا. و(الْجَمْعُ) أيضًا اسم لجماعة الناس(٢).

تعريف أهل السنة والجماعة:

يطلق (أهل السنة) على معنيين: عام وخاص؛ فأما العام فيطلق على من سوى الرافضة، وأما الخاص فيطلق على من يثبت جميع الصفات لله تعالى، ويقول بعدم خلق القرآن، وأن الله يُرَى في الآخرة، ويُثبِت القدر، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل السنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: (فلفظ: (أهل السنة) يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة، وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى، ويقول: إن القرآن غير مخلوق، وإن الله يُرَى في الآخرة، ويُثبِت القدر، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة)(٣).

وهذا المعنى الثاني هو المقصود في حديثنا هنا.

---

(١) السنة قبل التدوين (١/ ١٦).

(٢) انظر: مختار الصحاح (ص:٦٠)، الكليات (ص:٣٣٢)، القاموس المحيط (ص:٧١٠).

(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٢١).

والذين قالوا بهذه الأصول هم المتمسكون بسُنَّة النبي ﷺ وأَصحابه ومَن تبعهم وسلكَ سبيلهم من التابعين وتابعيهم (أهل القرون المفضلة)، ومن الذين استقاموا من بعدهم على الاتباع وجانبوا الابتداع[(١)]، ولهذا سُمُّوا بأهل السنة.

وهذا المدلول بعينه هو مدلول لفظ السلف[(٢)].

إذن أهل السنة والجماعة هم المتمسكون بالسنة، المجتمعون عليها[(٣)]، وهم السلف الصالح، وقد حرص أهل العلم على إضافة (الجماعة) للرد على الخوارج بكل فرقها، ولبيان أنه لا بد من السمع والطاعة لولي الأمر، حتى ولو ارتكب بعض الكبائر.

ويقال لأهل السنة أيضًا: أهل الأثر، أو أهل الحديث، أو الطائفة المنصورة، أو الفرقة الناجية.

ومن هنا؛ فمسمى (السلفية) أو مسمى (أهل السنة والجماعة) منهج، وليس حزبًا أو جماعة تتسمى باسمهم، أو تنتسب إليهم ولا تسير على هذا المنهج، فمن سار على هذا المنهج وسلكه فهو منتسب إليهم، وداخل في مسمى السلفية، ولكنه ليس السلفية كلها، فالمنهج السلفي لا يصح أن يحصر في مدارس معينة أو أشخاص معينين، يسمون أنفسهم بالسلفية

---

(١) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٩٠)، مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (١/ ٢٦)، الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة (١/ ٣٦).

(٢) انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات (ص:٥٣).

(٣) منهاج أهل السنة والجماعة في العقيدة والعمل (ص:٨).

وينفونها عن غيرهم؛ لأن من سلك هذا المنهج داخل في مسمى أهل السنة والجماعة، ولو لم يكن منتميًا إلى مدرسة معينة أو مذهب معين، أو طريقة معينة، فالعبرة بالتزام الضابط والمنهج الجامع لمسمى أهل السنة والجماعة، كما لا يصح أن يسمي فئةٌ من الناس أنفسَهم بالسلفية؛ لسلوك طريقة معينة في التلقي والاستدلال، ثم يخرجون من سواهم من هذا المسمى، وينفونه عنهم بدعوى عدم سلوك ما سلكوه، أو بسبب مخالفة في مسألة محتملة أو اجتهاد اقتضاه الاتباع للنص وقواعد الشرع، أو حتى خطأ كان سببه ما ذكر سابقًا، ومن حصر هذا المنهج على طريقته ومدرسته وأشخاص بعينهم، وأخرج من التزم به من مسمى السلف وأهل السنة، فقد حجَّر واسعًا، وتعصب وتحزَّب ووقع فيما أراد الهروب منه.

إن ضبط مسمى أهل السنة وتمييزه عن أهل البدع جانب مهم جدًّا؛ لأن الناس شرَّقت وغرَّبت في هذا الأمر، وحاصل الأمر أن العبد إذا كان معظمـًا للنصوص، مقدمـًا لها على رأيه وذوقه وقياسه، مسَلِّمـًا لها، فهذا هو السني وإن أخطأ في بعض التطبيقات.

وإن كان: مقدمـًا للعقل أو الذوق على النقل، معارضـًا للنصوص، طاعنـًا في دلالاتها، لا يقبل خبر الواحد، فهذا مخالف للسنة وإن وافق في بعض الجزئيات.

يقول أبو المظفر السمعاني رحمه الله: (واعلم: أن فصل ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألة العقل فإنهم أسسوا دينهم على المعقول، وجعلوا الاتباع والمأثور تبعًا للمعقول، وأما أهل السنة فقالوا: الأصل في الدين الاتباع والمعقول تبع،

ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحيين، وعن الأنبياء، ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء، ولو كان الدين بُني على المعقول وجب ألَّا يجوز للمؤمنين أن لا يقبلوا شيئًا حتى يعقلوا)[١].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: (قد ذم أهل العلم والإيمان من خرج عما جاء به الرسول ﷺ في الأقوال والأفعال ظاهرًا وباطنًا، ومدحهم هو لمن وافق ما جاء به الرسول ﷺ، ومن كان موافقًا من وجه ومخالفًا من وجه كالعاصي الذي يعلم أنه عاص فهو ممدوح من جهة موافقته، مذموم من جهة مخالفته، وهذا مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة ومن سلك سبيلهم في الأسماء والأحكام)[٢].

فائدة في التعصب والتحزب في نظر شيخ الإسلام ابن تيمية:

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ كلامًا مهمًّا فيما يقع به بعض الناس من التمييز بين أهل السنة والبدعة، والموالاة والمعادة وفقًا لرأي طائفة أو شيخ من الناس وبيَّن ضلال هذه الطريقة، فقال ﷺ: (ومن نصَّب شخصًا كائنًا من كان، فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو من الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعًا)[٣].

وقال أيضًا ﷺ: (كثير من الناس يخبر عن هذه الفرق بحكم الظن

---

(١) الانتصار لأصحاب الحديث (ص:٨٢).

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية (ص:١٩٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/٨).

والهوى، فيجعل طائفته والمنتسبة إلى متبوعه الموالية له هم أهل السنة والجماعة؛ ويجعل من خالفها أهل البدع، وهذا ضلال مبين؛ فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر؛ وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة؛ بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، فمن جعل شخصًا من الأشخاص غير رسول الله ﷺ من أحبه ووافقه كان من أهل السنة والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدعة والفرقة -كما يوجد ذلك في الطوائف من اتباع أئمة في الكلام في الدين وغير ذلك- كان من أهل البدع والضلال والتفرق)[١].

كما يبين رحمه الله أن التحزب والتعصب فيه مناقضة لمسمى أهل السنة والجماعة، فيقول رحمه الله: (فأما الانتساب الذي يفرِّق بين المسلمين، وفيه خروج عن الجماعة والائتلاف إلى الفرقة، وسلوك طريق الابتداع، ومفارقة السنة والاتباع، فهذا مما يُنهى عنه، ويأثم فاعله، ويخرج بذلك عن طاعة الله ورسوله ﷺ)[٢].

وفي سياق ذكره رحمه الله لأبي ذر الهروي والباجي والقاضي أبي بكر الباقلاني وأبي بكر ابن العربي صاحب كتاب أحكام القرآن وغيرهم من الأئمة رحمهم الله جميعًا يقول: (ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساع مشكورة، وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع،

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٤٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٥١٤).

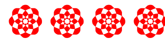
والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم، وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف، لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة، وهم فضلاء عقلاء احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه، فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين، وصار الناس بسبب ذلك: منهم من يعظمهم؛ لما لهم من المحاسن والفضائل، ومنهم من يذمهم، لما وقع في كلامهم من البدع والباطل، وخيار الأمور أوساطها.

وهذا ليس مخصوصًا بهؤلاء؛ بل مثل هذا وقع لطوائف من أهل العلم والدين، والله تعالى يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات، ويتجاوز لهم عن السيئات، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[الحشر: ١٠].

ولا ريب أن من اجتهد في طلب الحق والدين من جهة الرسول ﷺ، وأخطأ في بعض ذلك فالله يغفر له خطأه، تحقيقًا للدعاء الذي استجابه الله لنبيه وللمؤمنين؛ حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة:٢٨٦].

ومن اتبع ظنه وهواه فأخذ يشنع على من خالفه بما وقع فيه من خطأ ظنه صوابًا بعد اجتهاده، وهو من البدع المخالفة للسنة، فإنه يلزمه نظير ذلك أو أعظم أو أصغر فيمن يعظمه هو من أصحابه، فقلَّ من يسلم من مثل ذلك في المتأخرين؛ لكثرة الاشتباه والاضطراب، وبعد الناس عن نور النبوة وشمس الرسالة الذي به يحصل الهدى والصواب، ويزول به عن القلوب الشك والارتياب، ولهذا تجد كثيرًا من المتأخرين من علماء الطوائف يتناقضون في

مثل هذه الأصول ولوازمها، فيقولون القول الموافق للسنة، وينفون ما هو من لوازمه، غير ظانين أنه من لوازمه، ويقولون ما ينافيه، غير ظانين أنه ينافيه، ويقولون بملزومات القول المنافي ما أثبتوه من السنة، وربما كفَّروا من خالفهم في القول المنافي وملزوماته،...)[١].



(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ١٠٢-١٠٣).

مباحث الكتاب

المبحث الأول: منهج السلف من خلال خواتيم سورة البقرة.

المبحث الثاني: الآيات في التسليم والانقياد لأمر الله، وذم الإعراض وعدم الانقياد.

المبحث الثالث: حال السلف مع السمع والطاعة للوحي.

المبحث الأول

منهج السلف من خلال خواتيم سورة البقرة

المطلب الأول: سبب نزول خواتيم سورة البقرة.

المطلب الثاني: فضل خواتيم سورة البقرة.

المطلب الثالث: تفسير خواتيم سورة البقرة.

بين يدي سورة البقرة

افتتحت سورة البقرة بالحروف المقطعة التي تشير إلى إعجاز القرآن وفصاحته وبلاغته، ثم الحديث عن هذا القرآن نفسه وبيان صدقه وصحته، ثم بيان أقسام الناس الثلاثة، وهم المتقون والكافرون والمنافقون، ثم ذكر الله ﷻ قصة خلق آدم ﷺ، وبيانه ﷻ للعداوة بين الشيطان وذريته وبين آدم ﷺ وذريته، وإنزال آدم إلى الأرض واستخلافه فيها، وقبول توبته، واستحقاق الشيطان للعنة، وكِبْرِه وعدم توبته، بل وطلبه من ربه تعالى أن يؤخِّره إلى يوم يبعثون.

تأمل في آدم ﷺ كيف تلقى كلمات ربه، وقالها مع أُمِّنا حواء كما في سورة الأعراف: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف:٢٣]، وهي دعوة واضحة إلى التوبة الصادقة.

ثم ذكر ﷻ في هذه السورة نعمه على بني إسرائيل وفضله عليهم، وبيَّن ما كانوا عليه من جحود النعم وكفرانها، وما كان من تشديدهم على أنفسهم في قصة البقرة، التي هي سبب تسمية هذه السورة، وما كان من كثرة أسئلتهم واختلافهم، وما أقدموا عليه من الظلم والطغيان، ومن العناد والتكذيب، وتحريف التوراة، وكفرهم بالرسل، وعبادتهم العجل، إلى غير ذلك من الأباطيل والمزاعم والافتراءات.

ثم ذكر الله ﷻ الابتلاء العظيم لإبراهيم ﷺ في بناء الكعبة، ودعوته بتلك

الدعوة العظيمة، وهي بعثة محمد ﷺ، وبيان أن الله تعالى قد استجاب له تلك الدعوة، ثم جاء ذكر بعض التكاليف الشرعية، وهي كثيرة، من استقبال الكعبة، وتحول القبلة من بيت المقدس، والذي كان فيه ابتلاء عظيم للمؤمنين.

ثم ما ذكر بعد ذلك من أحكام القصاص، والصيام، وبيان رحمة الله تعالى، ورأفته بأمة محمد ﷺ بما خفف به عنهم في أمر الصيام في قوله ﷻ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[البقرة:١٨٧].

ثم ذكر الله ﷻ الإجابة على بعض الأسئلة التي وردت للنبي ﷺ من الصحابة، فتفضل تعالى وامتن على أصحاب الرسول ﷺ وأكرمهم، فأجاب على أسئلتهم: (يسألونك) كذا (قل) كذا، ومن ذلك وضع الآصار عن هذه الأمة، فيما يتعلق بالمرأة؛ فإن الله ﷻ قد بيَّن أن الحائض لا تهجر، بل تبقى معاشرة الزوج لها على ما هي عليه غير أنه لا يطؤها، وقد خفف الله تعالى عنها الصلاة والصيام، فلا تصلي ولا تصوم، وتقضي الصوم دون الصلاة، ولها أجر من توضأ وصلى كما كانت قبل الحيض، كأجر المريض الذي كان يحافظ على صلاة النوافل وقيام الليل، ثم منعه مرضه من المحافظة عليها.

وفي هذا الحكم بيان أن المرأة أثناء الدورة ليست نجسة بذاتها، بخلاف ما يعتقده اليهود، الذين شدَّدُوا على أنفسهم في أمور كثيرة، حتى شدَّدُوا على أنفسهم في الطهارة، فشدَّد الله ﷻ عليهم، ومن تشديدهم ما ذكره الله ﷻ عنهم في قصة البقرة المذكورة في أول السورة.

وكان هذا التخفيف على هذه الأمة واقع بإرادة الله تعالى الشرعية

والقدرية: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥]، رحمة منه تعالى بهذه الأمة.

جاء هذا التخفيف في آيات كثيرة، يطول المقام في ذكرها، في الإرث، والقصاص، والتعامل مع أموال اليتامى، وغير ذلك، مما سئل فيه النبي ﷺ وأجاب عنه المولى ﷻ في ثنايا هذه السورة.

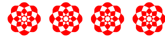
ثم جاء الحديث عن مسائل الطلاق، وما فيها من رحمة الله تعالى بالعباد، وما تبع ذلك من التلميح بخطبة المعتدة؛ وما فيها من أحكام مما يعلمه الله ﷻ، وما تحمله القلوب وما تنوء به من أحاسيس ومشاعر، فلله الحكمة البالغة في ذلك.

ثم ذكر بعد ذلك الحث على الإنفاق في سبيل الله، والتحذير من الربا، وتوثيق الحقوق، حتى كان ختام هذه السورة المباركة بهذه الآيات الثلاث العظيمة المباركة، والتي كانت بمثابة بيان المنهج الصحيح، والضابط السليم، في كيفية تعامل المؤمن مع كل ما سبق من أخبار وأحكام، وتلقي ذلك بالتصديق والإيمان، والتسليم والطاعة والقبول.

ومن المعلوم أن نظم القرآن هو من الله تعالى باتفاق العلماء، فلم تختم هذه السورة بهذه الآيات إلا لحكم عظيمة.

إن هذه السورة أطول سورة في القرآن، وورد عنه ﷺ أحاديث في فضلها، من ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدَّمه سورة البقرة، وآل عمران**»، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال

ما نسيتهن بعد، قال: «**كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان بينهما شَـرْق، أو كأنهما حِزْقان من طير صواف، تُحاجان عن صاحبهما**»[(١)]، وعن بريدة الأسلمي ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة**»[(٢)]، وفيها آية الكرسي وهي أعظم آية في كتاب الله، وفي ختامها أحاديث في فضل تلك الآيات الثلاث، كما سيأتي مفصلًا.



---

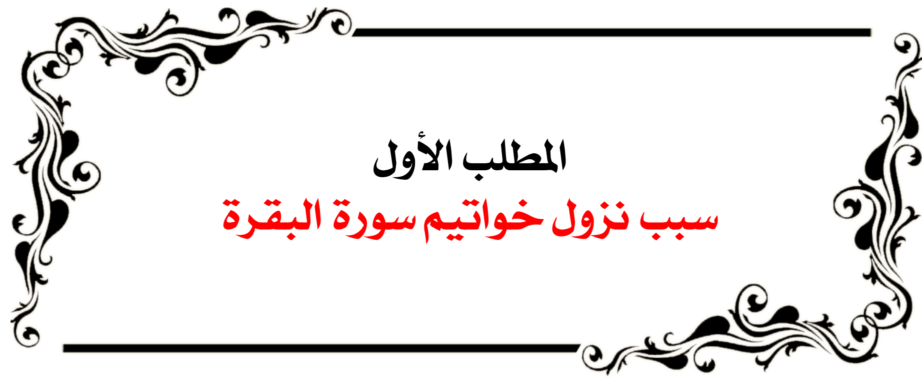
(١) صحيح مسلم (١/ ٥٥٤) برقم (٨٠٥).

(٢) مسند أحمد (٣٨/ ٤١) برقم (٢٢٩٥٠).

خواتيم سورة البقرة

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾

[البقرة:٢٨٤-٢٨٦].



المطلب الأول

سبب نزول خواتيم سورة البقرة

أورد جمع من المفسرين[(١)] حديث أبي هريرة ﷺ، وجعلوه سببًا للنزول، وفيما يلي بيان ذلك:

عن أبي هريرة ﷺ قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾[البقرة:٢٨٤]، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الركب، فقالوا: أيْ رسول الله، كُلِفْنا من الأعمال ما نطيق؛ الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: «**أتريدون أنْ تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا؛ غفرانك ربنا وإليك المصير**»، قالوا: سمعنا وأطعنا؛ غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذَلَّت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾[البقرة:٢٨٥]، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة:٢٨٦]، قال: نعم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾[البقرة:٢٨٦]، قال:

---

(١) انظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٦/ ١٠٣) برقم (٦٤٥٦)، وتفسير البغوي (١/ ٣٥٤)، والمحرر الوجيز (١/ ٣٩١)، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١/ ١٤٢)، وتفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٦٥)، والمحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة (١/ ٢٩٩-٣٠٠).

نعم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٦]، قال: نعم. ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾[البقرة:٢٨٦]، قال: نعم[١].

وجاء مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[البقرة:٢٨٤]، قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبَهم من شيء، فقال النبي ﷺ: «**قولوا: سمعنا وأطعنا وسَلَّمنا**»، قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة:٢٨٦]. قال: قد فعلت. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾[البقرة:٢٨٦]. قال: قد فعلت. ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾[البقرة:٢٨٦]. قال: قد فعلت[٢].

أقوال أهل العلم في سبب نزول الآيات:

قال الواحدي رحمه الله: (قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾[البقرة:٢٨٤] جاء أبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل، وناس من الأنصار إلى النبي ﷺ، فجثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله! والله ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية؛ إنَّ أحدنا ليحدِّث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه وأنَّ له الدنيا وما فيها، وإنا لمؤاخذون بما نحدِّث به أنفسنا، هلكنا والله! فقال النبي ﷺ: «**هكذا أُنزِلت**» فقالوا: هلكنا

(١) صحيح مسلم (١/ ١١٥) برقم: (١٢٥).
(٢) صحيح مسلم (١/ ١١٦) برقم (١٢٦).

وكُلِّفنا من العمل ما لا نطيق. قال: «**فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى: سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا**» فقالوا: سمعنا وأطعنا، واشتد ذلك عليهم، فمكثوا بذلك حولًا فأنزل الله تعالى الفرج والراحة بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦] الآية، فنسخت هذه الآية ما قبلها، قال النبي ﷺ: «**إنَّ الله قد تجاوز لأمتي ما حدَّثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا به**»[(١)] متفق عليه [(٢)].

ولهذا وغيره أصبح للصحابة حقوق على مَن جاء بعدهم ﵃ وأرضاهم.

وقال ابن عطية الأندلسي ﵀: (سبب هذه الآية أنه لما نزلت: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾[البقرة:٢٨٤] الآية التي قبلها، وأشفق منها النبي ﷺ وأصحابه ﵃، ثم تقرر الأمر على أن قالوا: سمعنا وأطعنا، فرجعوا إلى التضرع والاستكانة، مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية، وقدَّم ذلك بين يدي رِفْقِه بهم، وكَشْفِه لذلك الكرب الذي أوجبه تأوُّلهم؛ فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح والثناء، ورفع المشقة في أمر الخواطر، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى، كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك، من ذمهم وتحميلهم المشقات، من المذلة والمسكنة والجلاء إذ قالوا: سمعنا وعصينا، وهذه ثمرة العصيان والتمرد على الله. عاذنا الله من نِقَمِه)[(٣)].

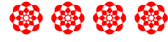
---

(١) صحيح البخاري (٨/ ١٣٥) برقم (٦٦٦٤)، صحيح مسلم (١/ ١١٦) برقم (١٢٧)، عن أبي هريرة ﵁.

(٢) أسباب النزول (ص:٩٥-٩٦).

(٣) المحرر الوجيز (١/ ٣٩١).

ويتبين بهذا جليًّا بيان فضل الصحابة ﭫ على من جاء بعدهم، وذلك لما قدموه من الإيمان بالنبي ﷺ ونصرته والجهاد معه، وحفظ القرآن الكريم ونقله لمن بعدهم وغير ذلك.





المطلب الثاني

فضل خواتيم سورة البقرة

خواتيم سورة البقرة لها شأن عظيم؛ وقد ورد في فضلها عدة أحاديث، وفيما يلي بيان ذلك، مع ذكر شيء من أقوال أهل العلم في معانيها:

١. عن أبي مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»(١).

وفي مصنف عبد الرزاق بدون ذكر (الليلة): «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه»(٢).

جاء في معنى: «**كفتاه**» أقوال:

فقيل: أجزأتا عنه من قيام الليل بالقرآن.

وقيل: أجزأتا عنه عن قراءة القرآن مطلقًا؛ سواء كان داخل الصلاة أم خارجها.

وقيل: أجزأتاه فيما يتعلق بالاعتقاد؛ لما اشتملتا عليه من الإيمان والأعمال إجمالًا.

وقيل: كفتاه كل سوء.

وقيل: كفتاه شر الشيطان.

وقيل: دفعتا عنه شر الإنس والجن.

وقيل: كفتاه ما حصل له بسببهما من الثواب عن طلب شيء آخر،

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٨٨) برقم (٥٠٠٩)، صحيح مسلم (١/ ٥٥٤) برقم (٨٠٧).

(٢) المصنف (٣/ ٣٧٦) برقم (٦٠٢٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٥٢).

وكأنهما اختصتا بذلك؛ لما تضمنتاه من الثناء على الصحابة بجميل انقيادهم إلى الله وابتهالهم ورجوعهم إليه، وما حصل لهم من الإجابة إلى مطلوبهم[١].

قال النووي ﷺ: (قيل: معناه كفتاه من قيام الليل، وقيل: من الشيطان، وقيل: من الآفات، ويحتمل: من الجميع)[٢]، وقال ابن حجر ﷺ: (يجوز أن يراد جميع ما تقدم، والله أعلم)[٣]، وقال ابن الملقن ﷺ: (وفي قوله: «**كفتاه**» أقوالٌ: أظهرها: من قيام ليلة، وقد جاء مصرحًا به في رواية علقمة عن أبي مسعود البدري ﷺ أنه قال: من قرأ خاتمة سورة البقرة أجزأت عنه قيام ليلة)[٤].

٢. عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «لما أسري برسول الله ﷺ، انتُهِي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُعرج به من الأرض فيُقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهبط به من فوقها فيُقبض منها»، قال: «﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ١٦﴾[النجم:١٦]»، قال: «فراش من ذهب»، قال: «فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثًا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئًا المُقْحِمات[٥]»[٦].

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٩/ ٥٦)، وانظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ١٥٢، ١٥٣)، و(٦/ ٩١، ٩٢).

(٢) شرح النووي على مسلم (٦/ ٩١، ٩٢).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٩/ ٥٦).

(٤) التوضيح شرح الجامع الصحيح (٢٤/ ٦٩).

(٥) المقحمات: بضم الميم وإسكان القاف وكسر الحاء، ومعناه: الذنوب العظام الكبائر التي تهلك أصحابها وتوردهم النار وتقحمهم إياها، والتقحم الوقوع في المهالك. شرح النووي على مسلم (٣/ ٣).

٣. عن ابن عباس ﷺ قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ، سمع نقيضًا[١] من فوقه، فرفع رأسه، فقال: «**هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم**»، فنزل منه ملك، فقال: «**هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته**»[٢].

قال الوزير ابن هبيرة ﷺ: (في هذا الحديث ما يدل على تكريم هذه الآيات، بأن فُتِح لها بابٌ لم يفتح قبل، وأُرسل بها ملك لم يُرسل قبل، وتسميتها بنورين، وأنه لم يؤتها نبي قبل محمد ﷺ)[٣].

وقال القاضي البيضاوي ﷺ: (وقوله: «**إلا أعطيته**» يخصه ويقيده بما فيه دعاء)[٤].

وقال المُظهِري ﷺ: (يعني: أعطيت ثواب ما تقرأ، أو أعطيت ما تسأل من الله الكريم من حوائجك في الدنيا والآخرة)[٥].

وقال ابن الملك الكرماني ﷺ: (أي: أُعطيتَ ما اشتملت عليه تلك الجملة من المسألة، كقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ و ﴿غُفۡرَانَكَ﴾ و﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ﴾ في غير المسألة من حمدٍ وثناءٍ؛ يعني: ثوابه، أو المراد

---

(٦) صحيح مسلم (١/ ١٥٧) برقم (١٧٣).
(١) أي: صوتًا كصوت الباب إذا فُتِح. انظر: شرح النووي على مسلم (٦/ ٩١).
(٢) صحيح مسلم (١/ ٥٥٤) برقم (٨٠٦).
(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح (٣/ ٢٣٩).
(٤) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (١/ ٥٢٨).
(٥) المفاتيح في شرح المصابيح (٣/ ٧٧).

بالحرف: حرف التهجِّي، فمعناه: أُعطيتَ ثوابَه)[(١)].

وقيل: أعطيت ما تسأل من حوائجك الدنيوية والأخروية[(٢)].

٤. عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت خواتيم سورة البقرة من بيت كنز من تحت العرش، لم يعطهن نبي قبلي**»[(٣)].

٥. عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة، فإني أعطيتهما من تحت العرش**»[(٤)].

٦. عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعِلت الأرض كلها لنا مسجدًا، وجُعِلت تربتها لنا طهورًا، وجُعِلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وأُوتيتُ هؤلاء الآيات -آخر سورة البقرة- من كنز تحت العرش، لم يعط منه أحد قبلي، ولا يعطى منه أحد بعدي**»[(٥)].

٧. عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الله كتب كتابًا قبل أن**

---

(١) شرح مصابيح السنة (٣/ ٢٤).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٤٦٥).

(٣) مسند أحمد (٣٥/ ٢٧٤) برقم (٢١٣٤٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٢٤١) برقم (١٠٦٠).

(٤) مسند أحمد (٢٨/ ٥٦١) برقم (١٧٣٢٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٢٥٨) برقم (١١٧٢).

(٥) سنن النسائي الكبرى (٧/ ٢٦٠) برقم (٧٩٦٨)، مسند أحمد (٣٨/ ٢٨٧) برقم (٢٣٢٥١)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٣/ ٤٧١) برقم (١٤٨٢). وأصله في صحيح مسلم (١/ ٣٧١) برقم (٥٢٢) ولم يذكر الآيتين من سورة البقرة.

يخلق السماوات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دارٍ ثلاث ليال فيقربها شيطان»(١).

٨. عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «آيتان هما قرآن، وهما يشفيان، وهما مما يحبهما الله ﷻ، الآيتان من آخر البقرة»(٢).

ومن الآثار الواردة في فضل خواتيم سورة البقرة:

١. ما ورد أنَّ معاذ بن جبل ﷺ: «كان إذا فرغ من هذه السورة ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ قال: آمين»(٣).

وفي رواية: «أنه كان إذا ختم البقرة قال: آمين»(٤).

٢. عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «من قرأ بالثلاث الآيات التي في آخر البقرة في ليلة، فقد أكثر وأطاب»(٥).

٣. عن ابن مسعود ﷺ قال: «خواتيم سورة البقرة أنزلت من كنز تحت

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ١٥٩-١٦٠) برقم (٢٨٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ١٨٥) برقم (١٤٦٧).

(٢) الديلمي في الفردوس (١/ ٤١٣) برقم (١٦٧١). قال المناوي ﷺ: «وفيه محمد بن إبراهيم بن جعفر الجرجاني فإن كان البردي فصدوق، أو الكيَّال فوضاع كما في الميزان» فيض القدير (١/ ٦٤)، ولكن قال الغماري ﷺ في المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي (١/ ٥٤): (قلت: المذكور في السند هو الأول، لأنه الذي يروي عنه سليمان بن إبراهيم أبو مسعود الأصبهاني الحافظ، وهو الراوي عنه في هذا الحديث).

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٦/ ١٤٦) برقم (٦٥٤٢).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٢/ ١٨٨) برقم (٧٩٧٦).

(٥) أخرجه أبو يوسف في الآثار (ص:٦٣) برقم (٣١٦).

العرش»[١].

٤. عن علي ﵁ قال: «ما كنت أرى أنَّ أحدًا يعقل، ينام حتى يقرأ هؤلاء الآيات من آخر سورة البقرة، وإنهن لمن كنز تحت العرش»[٢].

أطلت بذكر هذه النصوص والآثار؛ لبيان عظمة هذه الآيات، وأنها تضمنت أمورًا مهمة، ومنها:

- بيان فضل الصحابة ﵃ على من جاء بعدهم، وهو من موجبات ذكرهم بإحسان ﵃ أجمعين.
- توفيق المولى ﷻ للصحابة ﵃ في تجاوز هذا الابتلاء الذي وقع عليهم، وذلك بمقابلته بالتسليم والطاعة والإذعان.
- التذكير بأركان الإيمان الستة، وهو دليل على لزوم أن يتعاهد المؤمن إيمانه.
- بيان ضابط المنهج الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ﵃، وهذا هو موضوع بحثنا.



(١) سنن النسائي الكبرى (٧/ ٢٦١) برقم (٧٩٦٩).
(٢) سنن الدارمي (٤/ ٢١٣٠) برقم (٣٤٢٧).



المطلب الثالث

تفسير خواتيم سورة البقرة

قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾:

(ال) في ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ للعهد، وهو عَلَم بالغلبة على محمد ﷺ في وقت النزول[1].

قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾:

هذا إخبار عن النبي ﷺ بذلك، والآية تتحدث عن الأصل العظيم في الاتباع، ويدخل فيما أنزل أمران:

الأول: ما أنزل إليه من القرآن من ربه، وأمره أن يتَّبِعه ويبلغه، وليس له أن يخالفه.

الثاني: السنة النبوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣﴾[النجم: ٣]، وعن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا ندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[2].

قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣﴾ أي: لا يتكلم بشيء صادر عن الهوى بأي حال من الأحوال، فما حكم بشيء من أجل

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٣٢).

(٢) مسند أحمد (٣٩/ ٢٨٦-٢٨٧) برقم: (٢٣٨٦١)، التاريخ الكبير للبخاري (٧/ ٢٨٨)، سنن ابن ماجه (١/ ٦) برقم: (١٣)، سنن أبي داود (٤/ ٢٠٠) برقم: (٤٦٠٥)، واللفظ له، سنن الترمذي (٥/ ٣٧) برقم: (٢٦٦٣) وقال: هذا حديث حسن، وصححه ابن حبان (١/ ١٩٠) برقم: (١٣)، والحاكم (١/ ١٩٠) برقم: (٣٦٨)، قلت: وقد اختلف في إسناده وصلًا وإرسالًا، ورجَّح الحافظ الدارقطني في العلل (٧/ ٨) برقم: (١١٧٢) رواية الوصل.

الهوى، ولكنه ينطق بما أوحي إليه من القرآن، وما أوحي إليه من السنة، وما اجتهد به ﷺ اجتهاداً يريد به المصلحة، فنطقه ﷺ ثلاثة أقسام:

الأول: أن ينطق بالقرآن.

الثاني: أن ينطق بالسنة الموحاة إليه التي أقرها الله تعالى على لسانه.

الثالث: أن ينطق باجتهاد لا يريد به إلا المصلحة.

أما نحن فننطق عما نريد به المصلحة، وننطق عن الهوى، وليس كل إنسان منا سالمًا من الهوى، بل يميل مع صاحبه، ويميل مع قريبه، ويميل مع الغني، ويميل مع الفقير، لكن النبي ﷺ لا يمكن أن يتكلم عن هوى، وإذا كان لا يمكن أن ينطق عن الهوى صار لا ينطق إلا بحق [1].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

عطف على ﴿ٱلرَّسُولُ﴾[2]، «﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هنا لقب للذين استجابوا لرسول الله ﷺ، فلذلك كان في جعله فاعلًا لقوله: ﴿ءَامَنَ﴾ فائدة، مع أنه لا فائدة في قولك: قام القائمون»[3]، والمقصود بالمؤمنين في الآية في المقام الأول: من فاز بشرف الصحبة للنبي ﷺ، وكذا من آمن به ﷺ من بعدهم إلى قيام الساعة، ويدل عليه الجملة التي بعدها؛ حيث جاءت بصيغة الماضي.

(١) تفسير سورة النجم لابن عثيمين (ص:٢٠٦).
(٢) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٢).
(٣) التحرير والتنوير (٣/ ١٣٢).

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ (الركن الأول من أركان الإيمان):

وهذا جمعٌ بعد تفصيل[(١)].

والإيمان: هو التصديق الجازم بالخالق المهيمن ﷻ رب الخلائق أجمعين، من الثقلين والجنة والنار وغيرها، فكلٌّ صدق بألوهية الله تعالى، فالقلوب تؤلهه اشتياقًا وحبًّا وتعظيمًا، وتركن إليه ثقة به، وتطمئن بذكره.

والإيمان اصطلاحًا: قول باللسان، وتصديق بالجنان (القلب)، وعمل بالأركان (الجوارح)، قال الإمام أحمد بن حنبل: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص[(٢)].

وفي لفظ الجلالة (الله) معجزة حار فيها الملاحدة؛ لأن العقلاء من البشر لا يطلقون اسمًا، ويصبح هذا الاسم علمًا لشيء في ذهن المتكلم.

ولفظ (الله) يدل على ربوبيته وألوهيته تعالى وكماله، وهو الأصل في الدلالة على ذات المولى ﷻ وأسمائه وصفاته.

قوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ (الركن الثاني):

الملائكة في اللغة: جمع مَلأَك، لكن نُقِلَتْ حركة الهمزة إلى اللام الساكنة قبله، ثم حُذِفت الهمزة تخفيفًا فصارت: ملاك، وهو مشتقٌّ من (الألوكة) وهي الرسالة، والجمع: ملائك، وملائكة[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٣٢).

(٢) مقدمة المحقق أحمد شاكر على مسند الإمام أحمد (١/ ٨٤).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٦١)، مختار الصحاح (ص:٢٩٨)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٩٩).

والملائكة منهم من ذكرهم الله تعالى بأسمائهم، وهؤلاء لا بد من الإيمان بهم بأسمائهم، ومنهم من ذكر مهامهم ولم يذكر أسماءهم، وهؤلاء يجب الإيمان بهم إجمالًا، والأصل فيهم القيام بتسبيح الله تعالى وعبادته بدون فتور ولا سآمة، وأنهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم:٦].

قوله تعالى: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ (الركن الثالث):

والكتب هي ما أنزل على النبي ﷺ من القرآن، وقد حفظه الله ﷻ من التغيير والتبديل والتحريف، وهو صُلب الدين والتشريع، وفيه حفظ للعقيدة ولغة العرب التي يتلى بها، وهذا مما اختص به القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت:٤١-٤٢] والعزيز هو الممتنع الذي يَغلِب ولا يُغلَب، ولا يدخله حذف ولا زيادة إلى أن يأذن الله برفعه.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩]، وهذا نص محكم كالآية السابقة.

وفي دلالة العقل: فإن جميع الكتب السماوية السابقة فيها أن آخر الرسل هو محمد وهو أحمد ﷺ، ومعلوم لدى كل من يعظم الرسول ﷺ أن القرآن محفوظ، وهم مكلفون بالإيمان بذلك، فمحال أن يكلفوا بمتابعة شريعة الرسول ﷺ إلى قيام الساعة، ولا يحفظ عليهم هذا المصدر الأول بحيث يجوز عليه النقص والزيادة.

ومن أورد روايات في النقص أو التحريف فهي مجرد أساطير كتبها عملاء

البـويهيين، في كتـاب أسـموه بـ "الكـافي"، لا يعـرف لـه أسـانيد، لا في ذات الكتـاب ولا مخطوطاتـه ولا حفظـه في الصـدور، والجـدال بـين الأصـوليين والإخباريين منهم على أشده.

وشـدد جمـاهير أهـل السـنة والجماعـة في حفـظ كـلام الله ﷻ "القـرآن الكـريم" مـن الـنقص والزيـادة، ولا أعلـم مخالفًا في ذلـك ممـن قـال بإمامـة الثلاثـة، وإنمـا الخـلاف لـدى طوائـف الشـيعة الاثنـي عشـرية علـى اختـلاف فرقهم ومدارسهم، وكذا الباطنية على اختلاف مذاهبهم.

ومما تضمنه القرآن: الإيمان بالتوراة، وأنها قـد حرِّفت بعـد موسـى عليه السلام، والإيمان بالإنجيل، وأنه قد دخله التحريف أيضًـا بعـد عيسـى عليه السلام، وكـل مـا ذكر في القرآن من الكتب لزم أمة محمد ﷺ الإيمان بـه إجمـالًا فيمـا أجمـل، وتفصيلًا فيما فصَّل فيه القرآن، والاعتقاد بأنه توجد كتب أخرى لم تـذكر في القرآن الكريم.

فما ورد في القرآن الكريم فهو ثابت قطعًا سواء وجد في التوراة والإنجيـل أم لا، وما ورد فيه من تفصيل فعلينا الإيمان به، وما لم نجد في القرآن الكريم رده أو إثباته، فهـو الـذي يـدخل في قولـه ﷺ: «**حـدثوا عـن بنـي إسـرائيل ولا حرج**»[1].

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٧٠) برقم: (٣٤٦١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (الركن الرابع):

الرسل جمع، ومفردها رسول[(١)]، وهو من اختاره الله تعالى للرسالة، وأرسله إلى قومه.

وفي هذا الركن جاء التعقيب في مسألتين بخلاف الأركان السابقة:

- الأولى: في عدم التفريق بين الرسل صلوات ربي وسلامه عليهم.
- الثانية: في بيان منهج الرسل صلوات ربي وسلامه عليهم.

والله تعالى قد فضَّل بعض الرسل على بعض؛ فقال سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[البقرة:٢٥٣]، ومحمد ﷺ هو خير الرسل، ويليه إبراهيم، ثم موسى وعيسى ونوح عليهم السلام، وهؤلاء هم أولوا العزم من الرسل عليهم السلام، والرسل جميعهم على الإسلام، ولذا أمرنا بعدم التفريق بينهم، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٥].

وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه: («لا يفرقون»، وجاء بـ ﴿أَحَدٍ﴾ على الإفراد ولم يقل: آحاد؛ لأنَّ الأحد يتناول الواحد والجميع)[(٢)].

قال ابن كثير رحمه الله: (أخبر عن الجميع بذلك، فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه، ويصدِّقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء،

---

(١) انظر: مختار الصحاح (ص:١٢٢)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٠٩).
(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٤٢٩).

لا يفرِّقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون، بارُّون، راشدون، مهديون، هادون إلى سبل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتى نُسِخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين)[(١)].

وقال القرطبي رحمه الله: (ومعنى هذه الآية: أنَّ المؤمنين ليسوا كاليهود والنصارى في أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض)[(٢)].

وفي التعقيب بقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ دلالة على أن الدين عند الله واحد، وهو الإسلام، وأنه لا يوجد أديان أخرى، نعم هناك مسميات لشرائع أخرى، وهي الشرائع التي نزلت بها الكتب المنزلة، فهناك شريعة الإسلام، وشريعة اليهود، وشريعة النصارى.

ويطلق على شريعة اليهود والنصارى: اليهودية والنصرانية، وقد يقال تجاوزًا: دين اليهود، وهو ما يدين به اليهود ويعملون به، ويقال أيضًا: دين النصارى وهو ما يدين به النصارى، ويعملون به مما أوحاه الله تعالى إلى عيسى وموسى عليهما السلام، ولكن اليهودية والنصرانية قد دخلها التحريف والتغيير والتبديل؛ لأن كتبها لم تحفظ؛ لأنها ليست هي الشرائع الخاتمة.

خاتم الأديان هو الإسلام، وخاتم الرسل هو محمد ﷺ؛ لذلك بقيت سيرته وسائر سنته محفوظة، وخاتم الكتب هو القرآن الكريم؛ ولذلك بقي

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٢).
(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٤٢٩).

محفوظًا بإذن الله تعالى.

ومن هنا فأفضل الكتب هو القرآن، وأفضل الرسل هو محمد ﷺ، ولا بد من إدراك الفرق بين التفريق بين الكتب والرسل وبين التفضيل بينها، فالتفضيل موجود -كما سبق ذكره- ولكن ليس هناك تفريق بين الأنبياء، ﴿**لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ**﴾؛ لأن طريقهم ومنهجهم جميعًا واحد، وهو المنهج الذي سار عليه النبي ﷺ وسار عليه الصحابة، وقد فسره الله ﷻ وبيَّنه في نفس الآية بعد ذلك مباشرة، ولم يعقب بعدها بشيء؛ فقال سبحانه: ﴿**وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾، فهذه المقولة قالها جميع الرسل ومن آمن بهم، **وهذا هو الضابط لما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه الكرام.**

إذن منهج (**السمع والطاعة للوحي**) هو منهج جميع الرسل، وهو ما كان عليه النبي ﷺ، وكان عليه أصحابه ﷺ، وهو الضابط لمسمى أهل السنة ممن جاء بعدهم إلى يوم القيامة.

وسيأتي مزيد إيضاح لهذا الأمر بإذن الله تعالى في ثنايا هذا الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾:

﴿**وَقَالُواْ**﴾ أي: المؤمنون كلهم، سواء قلنا: إن الضمير يعود على الرسل ﷺ، أم إلى محمد ﷺ وصحابته الكرام، فكلهم قالوا هذا القول في بيان منهجهم وطريقهم إلى الله ﷻ.

﴿**سَمِعْنَا**﴾ أي: سماع قبول وتعظيم.

﴿**وَأَطَعْنَا**﴾ أي: طاعة انقياد وإذعان وخضوع.

والمعنى: سمعنا قولك يا ربنا، وفهمناه، وقمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه[١].

قال القرطبي ﷺ: (فيه حذف، أي: سمعنا سماع قابلين. وقيل: سمع بمعنى قَبِل، كما يقال: سمع الله لمن حمده، فلا يكون فيه حذف، وعلى الجملة فهذا القول يقتضي المدح لقائله، والطاعة: قبول الأمر)[٢].

وقال ابن عاشور ﷺ: (وإنما جيء بلفظ الماضي دون المضارع؛ ليَدُلُّوا على رسوخ ذلك؛ لأنهم أرادوا إنشاء القبول والرضا، وصيغ العقود ونحوها تقع بلفظ الماضي، نحو: بعت)[٣].

ثم تأمل أن قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ جاء بعد قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ والتي فيها الشهادة من الله تعالى لهم بأنهم أقروا بأركان الإيمان، فأقروا بالله ﷻ، وأنه هو المؤلَّه والمعبود، وآمنوا بأسمائه وصفاته ﷻ، وآمنوا أيضًا بملائكته وكتبه ورسله.

قوله تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾:

هذا سؤال للغفر والرحمة واللطف[٤]، وهو اعتراف بالتقصير؛ نابع من خوفهم من الجليل سبحانه.

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٢).
(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٤٢٩).
(٣) التحرير والتنوير (٣/ ١٣٣، ١٣٤).
(٤) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٢).

تأمل أنهم لم يقولوا: يا غفار، يا رحيم، يا عفو، يا كريم، بل دعوه بإقرارهم بربوبيته سبحانه: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾، وكلمة (الرب) تدل على الملك والعظمة والربوبية، فناسب الإتيان بهذا الاسم العظيم في مقام الاعتراف بالتقصير والخوف منه سبحانه، والشعور بحاجتهم إليه تعالى، وفي مقام التسليم المطلق له، فهو الذي خلقهم، وهو ربهم ﷻ.

وقد قَبِل الله تعالى دعاءهم وأكرم رسله غاية التكريم، فقد أكرم نبينا محمدًا ﷺ كرمًا عظيمًا حين وصفه -في مقام التشريف- بالعبودية له سبحانه. قال ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[الإسراء:١]؛ لأن العبد إذا تقرب إلى الله تعالى وارتقى في عبوديته للخالق ﷻ كان ذلك أعلى المقامات وأكرمها عند الله تعالى.

إذَنْ من تمام تحققنا بهذا الضابط **(السمع والطاعة للوحي)** أن نحقق عبوديتنا لله تعالى، وأن نستشعر هذه العبودية للمولى ﷻ، وذلك بالخوف منه ﷻ، ونحسنها بطلب الرجاء والرفعة بالدرجات، والأمثلة في سِيَرَ الصحابة ﷺ، في تحقيق هذا في أنفسهم كثيرة، وسيأتي مزيد إيضاح لها بإذن الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر):

أي: إليك المرجع والمآب يوم يقوم الحساب[١]، وفيه إقرار بالبعث

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٢).

والوقوف بين يدي الله تعالى[(١)]، وفيه أنهم جعلوا الآخرة والوقوف بين يدي الله تعالى نصب أعينهم، وهو إشارة إلى الركن الخامس من أركان الإيمان، وهو الإيمان باليوم الآخر، وقد جاء ذلك في سياقٍ بديع عجيب، وهو استحضار الحساب والوقوف بين يدي الله تعالى يوم القيامة، حيث تنصب الموازين وتتطاير الصحف، ويكون الحساب والجزاء.

قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (الركن السادس: الإيمان بالقضاء والقدر):

ختم الله تعالى هذه السورة بهذه الآية التي فيها ذكرٌ لأهم ما يحتاجه العبد في مسائل القضاء والقدر، وهو سر الله ﷻ في خلقه، وهو الركن السادس من أركان الإيمان؛ ولذلك جاء ذكر الكسب بعد ذلك في الآية: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾.

الله لطيف بعباده ﷻ، وهو الحكيم العليم سبحانه، وقد جاء التخفيف في هذه الآية؛ لبيان الحقيقة الناصعة في موضوع القضاء والقدر، الذي لا يحيط العبد به علمًا، انظر وتأمل في قصة موسى ﷺ مع الخضر ﷺ، ففيها النظر في قضاء الله وقدره (في مآلات الأمور)، وهي قصة عجيبة بديعة، فيها وضوح كنه وحقيقة القضاء والقدر، وفيها ثلاثة أحداث مختلفة:

الحدث الأول: أحسنوا إليه، فخرق سفينتهم، فاستغرب موسى ﷺ، وسأل وأنكر؛ لأن خرق السفينة فساد مالي.

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٤٢٩).

والحدث الثاني: قتل النفس، طفل صغير يلعب مع الأطفال فقتله، فاستغرب موسى عليه السلام، وسأل وأنكر؛ لأنها نفسا زكية بغير نفس.

والحدث الثالث: متعلق بالجوع ولؤم أهل القرية، فاستغرب موسى عليه السلام، وسأل واستغرب، فلو شئت لاتخذت عليه أجرا.

والقدر سر الله في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره ومحبوبه ومكروهه ركن من أركان الإيمان لا يصح إيمان العبد إلا به.

ومن لطف الله بعباده -وهو من مسائل القدر المهمة- أن الله تعالى لم يكلِّفهم ما يشق عليهم؛ لأنه لا تكليف بما لا يطاق: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾، والقاعدة الفقهية المشهورة تقول: (المشقة تجلب التيسير)، وتقول: (إذا ضاق الأمر اتسع)، وهذا من فضل الله تعالى ولطفه بهذه الأمة.

يقول ابن كثير رحمه الله: (أي: لا يكلف أحدًا فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة، في قوله: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ أي: هو وإن حاسب وسَأَل لكن لا يُعَذِّبُ إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يمكن دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يُكلَّف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان)[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٢)، وعن أبي هريرة، قال: «جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: **وقد وجدتموه؟** قالوا: نعم، قال: **ذاك صريح الإيمان**». رواه مسلم في صحيحه (١/ ١١٩) برقم: (١٣٢).

(والمستطاع هو ما اعتاد الناس قدرتهم على أن يفعلوه، إن توجهت إرادتهم لفعله، مع السلامة وانتفاء الموانع)(١).

وقال السعدي ﷺ: (لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ شق ذلك على المسلمين لما توهموا أن ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة، المستقرة وغيرها، مؤاخذون به، فأخبرهم بهذه الآية أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها؛ أي: أمرًا تسعه طاقتها، ولا يكلفها ويشق عليها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحمية عن الضرر؛ فالله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمةً وإحسانًا، ومع هذا إذا حصل بعض الأعذار التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم)(٢).

وقال القرطبي ﷺ: (التكليف هو الأمر بما يشق عليه، وتكلفت الأمر تجشمته... والوسع: الطاقة والجِدَة. وهذا خبرٌ جَزْمٌ، نصَّ الله تعالى على أنه لا يكلف العباد من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلب أو الجوارح إلا وهي في وسع المكلف، وفي مقتضى إدراكه وَبِنْيَتِهِ، وبهذا انكشفت الكربة عن المسلمين في تأولهم أمر الخواطر... فالله سبحانه بلطفه وإنعامه علينا؛ وإن كان قد كلفنا بما يشق ويثقل -كثبوت الواحد للعشرة، وهجرة الإنسان

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٣٥).

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص:١٢٠).

وخروجه من وطنه ومفارقة أهله ووطنه وعادته- لكنه لم يكلفنا بالمشقات المثقلة، ولا بالأمور المؤلمة، كما كُلِّف من قبلنا بقتل أنفسهم، وقرض موضع البول من ثيابهم وجلودهم، بل سهَّل ورفق ووضع عنَّا الإصر والأغلال التي وضعها على من كان قبلنا)[(١)].

ومن الأمثلة العظيمة على رفع المشقة عن هذه الأمة والتخفيف عنهم؛ أن من عجز عن استخدام الماء في الوضوء فإنه ينتقل إلى التيمم؛ لأنه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وفي باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رُتِّب ذلك بحسب الاستطاعة، فتغيِّر المنكر بيدك، فإن لم تستطع فبلسانك، بالكلمة الطيبة ونحوها، وهذا واجب لمن قدر عليه، فإن لم تستطع فبقلبك، ولا يعذر أحد بتركه.

ومن رحمة الله تعالى أن جعل القرار بيد العبد المأمور، فعليه أن يبذل وسعه، ولا يركن إلى الراحة والمخادعة، فإن الله يعلم السر وأخفى.

وهكذا في إنفاق الرجل على أهله، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[الطلاق:٧].

إذَنْ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦]، قاعدة واضحة، فيها بيانٌ لرحمة الله بعباده، وسهولة التكاليف في هذه الشريعة المحمدية الخاتمة، فتأمل في آية فرض الصيام: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥]، وذلك في جواز الفطر للمسافر والمريض.

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٤٢٩، ٤٣٠).

قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾:

جاء ذكر الكسب في الآية؛ ليدل على أن للعبد اختيارًا، وهو مسئول عنه، والمعنى: لها ما كسبته من الخير[١]، وهذا فيه إثبات أن كسب الحسنات -ومن ثم الأجور- من جهد العبد وفعله، وأن العبد قد حاز عليها وفاز بها. نعم دخول الجنة برحمة الله ﷻ، لكن منازل أهل الجنة في الجنة بحسب كسبهم.

إذَنْ العبد له اختيار ومشيئة وإرادة، وهو الذي يكسب أعماله، وهو الذي يسعى ويضرب ويشتغل ويعمل بالطاعات، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[المطففين:٢٦]، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران:١٣٣] ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[المائدة:٤٨]، فالسعي والجد والعمل والمسابقة منك، ومن الله تعالى الأجر والمعونة.

وأما قولهم: الإنسان مسيَّر، أو مخيَّر، مجبور أو غير مجبور، فهذه مصطلحات منطقية كلامية، لا يُلتفت إليها؛ لأن الله فرض علينا توحيده وطاعته، وجعل هذا في اختيارنا.

الله ﷻ ألزم عباده بالتكليف الشرعي، لا بالنظر إلى القضاء القدري، فقدر الله القدري ماضٍ ولا محالة؛ فقلبك يدق من غير اختيارك، ولو توقف عن النبض لمُتَّ، ودمك يمشي بغير اختيارك، ونفَسُك يصعد وينزل بدون اختيارك، ولو توقف لمُتَّ، وأعضاء من جسدك تعمل أربعًا وعشرين ساعة، ولا علاقة لك بتشغيلها، لكنك إذا شعرت بالجوع أكلت خبزًا أو ميتة، وإذا

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٢).

اشتهيت أن تشرب شربت عصيرًا أو خمرًا، فكونك تأكل لحم دجاج أو غنم أو خنزير هذا في اختيارك، فأنت من تختار ما شئت من طعام وشراب ولباس.. إلخ، وعندك رغبات وشهوات، وأنت مأمور ومنهي، والاختيار لك، ومن الله تعالى الجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾:

أي: من شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف[١].

هذه الأفعال السيئة يحاسب عليها المرء، وقد سُجِّلت وقُيِّدت عليه، وهو يحملها فوق ظهره، كأنها منفصلة عنه، وقد أثقلت جسده، وهو لا يريدها، ويريد الفكاك منها.

نعم هي مكتوبة عليه قدرًا، لكنه مطالب شرعًا بأن لا يفعلها، فعليه أن يستعين بالله ويكثر من الدعاء له بعونه على اجتنابها، ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]، وأن يجتهد في بذل الأسباب لذلك، وأن يجتهد في العمل الصالح، والله تعالى لن يضيع عمله.

قال القرطبي ﵀: (﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ يريد من الحسنات والسيئات، قاله السدي وجماعة المفسرين لا خلاف بينهم في ذلك، قال ابن عطية ﵀: وهو مثل قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام:١٦٤]، ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾[الأنعام:١٦٤]، والخواطر ونحوها ليست من كسب الإنسان.

وجاءت العبارة في الحسنات بـ ﴿لَهَا﴾ من حيث هي مما يفرح المرء

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٢).

بكسبه ويُسَرُّ بها، فتضاف إلى ملكه، وجاءت في السيئات بـ (عليها) من حيث هي أثقال وأوزار ومتحملات صعبة، وهذا كما تقول: لي مال وعليَّ دين، وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف؛ حُسنًا لنمط الكلام، كما قال: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق:١٧]، قال ابن عطية ﵀: ويظهر لي في هذا أن الحسنات هي مما تكتسب دون تكلف، إذ كاسبها على جادة أمر الله تعالى ورسم شرعه، والسيئات تكتسب ببناء المبالغة، إذْ كاسبها يتكلف في أمرها خرق حجاب نهي الله تعالى ويتخطاه إليها، فيحسن في الآية مجيء التصريفين إحرازًا لهذا المعنى)[1].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ﴾:

أي: إن تركنا فرضًا على جهة النسيان، أو فعلنا حرامًا كذلك[2].

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾:

أي: الصواب في العمل، جهلًا منا بوجهه الشرعي[3].

عن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه»[4].

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٤٣٠، ٤٣١).

(٢) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٣).

(٣) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٣).

(٤) سنن ابن ماجه (١/ ٦٥٩) برقم (٢٠٤٥)، وصححه الألباني.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا﴾:

الإصر في اللغة: العهد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِي﴾ [آل عمران:٨١]. والإصر: الضيق والذنب وَالثِّقْلُ. والإصار: الحبل الذي تربط به الأحمال ونحوها، يقال: أَصَرَ يَأْصِرُ أَصْرًا: حَبَسَهُ)[(١)].

وأصل معنى الإصر ما يؤصر به، أي: يُربط، وتعقد به الأشياء، ويقال له: الإصار بكسر الهمزة، ثم استعمل مجازًا في العهد والميثاق المؤكد فيما يصعب الوفاء به[(٢)].

قال القرطبي رحمه الله: (ومعنى الإصر أي: ثقلًا، قال مالك والربيع: الإصر: الأمر الغليظ الصعب. وقال سعيد بن جبير: الإصر: شدة العمل، وما غلظ على بني إسرائيل من البول ونحوه. قال الضحاك: كانوا يحملون أمورًا شدادًا، وهذا نحو قول مالك والربيع، ومنه قول النابغة:

يا مانع الضيم أن يغشى سراتهم ... والحامل الإصر عنهم بعد ما عرفوا

قال عطاء: الإصر: المسخ قردة وخنازير، وقاله ابن زيد أيضًا.

وعنه أيضًا: أنه الذنب الذي ليس فيه توبة ولا كفارة)[(٣)].

ومعنى الآية: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة -وإن أطقناها- كما شرعته

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٤٣٢).
(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٤٠).
(٣) تفسير القرطبي (٣/ ٤٣٢).

للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمدًا ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به، من الدين الحنيف السهل السمح[(١)].

قال القرطبي رحمه الله: (وهو أنه حرَّم عليهم الطيبات بظلمهم، وكانوا إذا أذنبوا بالليل وجدوا ذلك مكتوبًا على بابهم، وكانت الصلوات عليهم خمسين، فخفف الله عن هذه الأمة وحطَّ عنهم، بعد ما فرض خمسين صلاة)[(٢)].

ولأجل رفع الإصر عن هذه الأمة جاء النهي عن النذر؛ لأن الإنسان يحمل نفسه ما لا يجب عليها، لكنه يجب الوفاء به؛ لأنك ألزمت نفسك به؛ فلا تشق على نفسك بالنذر، كما فعل بنو إسرائيل حين ابتدعوا الرهبانية فألزمهم الله تعالى بها، ﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[الحديد:٢٧]، وكما حرَّم اليهود على أنفسهم ما حرموه، فألزمهم الله به، وكن كأصحاب محمد ﷺ الذين كانوا رهن إشارته، سمعًا وطاعةً له ﷺ، فكان لهم بذلك الفضل على هذه الأمة.

ويدخل في معنى الآية أيضًا الدعاء بأن لا تحملنا دَينًا أو حقوقًا للعباد لا طاقة لنا بها.

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٣).

(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٤٢٦).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾:

أي: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قِبَل لنا به(١).

قال القرطبي رحمه الله: (لا تثقلنا من العمل ما لا نطيق فتعذبنا، ويقال: ما تشقّ علينا؛ لأنهم لو أمروا بخمسين صلاة لكانوا يطيقون ذلك، ولكنه يشق عليهم ولا يطيقون الإدامة عليه)(٢).

وقال ابن عاشور رحمه الله: ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ صفة لـ ﴿إِصْرًا﴾ أي: عهدًا من الدين، كالعهد الذي كُلِّف به من قبلنا في المشقة، مثل ما كُلِّف به بعض الأمم الماضية من الأحكام الشاقة؛ مثل أمر بني إسرائيل بتيه أربعين سنة، وبصفات في البقرة التي أمروا بذبحها نادرة، ونحو ذلك، وكل ذلك تأديب لهم على مخالفاتٍ، وعلى قلة اهتِبالٍ بأوامر الله ورسوله إليهم، قال تعالى في صفة محمد ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾[الأعراف:١٥٧])(٣).

وهذا يدل على فضل أصحاب رسول الله ﷺ، فتأملوا في هذا فهو في غاية الأهمية.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾:

ثم جاء طلب العفو والمغفرة من الله ﷻ، والإشارة لرحمته، وجاءت

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٣).

(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٤٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ١٤١).

الألفاظ مختلفة، فلكل لفظ دلالته، فالعفو يأتي معه الستر، والمغفرة تأتي مع الإقرار بالذنب واستحقاق العبد للعقاب لكن الله يغفره له، ورحمته ﷻ أوسع من هذا كله.

وكذلك ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾ أي: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ أي: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، ﴿وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ أي: فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره[(١)].

قال ابن عاشور ﵀: (لم يؤت مع هذه الدعوات بقوله: (ربنا)، إما لأنه تكرر ثلاث مرات، والعرب تكره تكرير اللفظ أكثر من ثلاث مرات إلا في مقام التهويل، وإما لأن تلك الدعوات المقترنة بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ فروع لهذه الدعوات الثلاث، فإذا استجيب تلك حصلت إجابة هذه بالأولى، فإن العفو أصل لعدم المؤاخذة، والمغفرة أصل لرفع المشقة، والرحمة أصل لعدم العقوبة الدنيوية والأخروية، فلما كان تعميمًا بعد تخصيص، كان كأنه دعاء واحد)[(٢)].

ولعلها لأجل أنها تحمل معنى التلطف والتودد والانكسار بين يدي الله ﷻ، وأسماء الله الحسنى المناسبة لها في مواضيعها تقال مستقلة

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٣).
(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٤١).

بين يدي الله الغفور الرحيم.

قوله تعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾:

أي: أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك[(١)].

قال ابن عاشور رحمه الله: (فَصَلَه لأنه كالعلة للدعوات الماضية: أي دعوناك ورجونا منك ذلك لأنك مولانا، ومن شأن المولى الرفق بالمملوك، وليكون هذا أيضًا كالمقدمة للدعوة الآتية)[(٢)].

قوله تعالى: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

أي: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة[(٣)].

قال ابن عاشور رحمه الله: (جيء فيه بالفاء للتفريع عن كونه مولى؛ لأن شأن المولى أن ينصر مولاه... وفي التفريع بالفاء إيذان بتأكيد طلب إجابة الدعاء بالنصر؛ لأنهم جعلوه مرتبًا على وصف محقق، وهو ولاية الله تعالى المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[البقرة:٢٥٧]، وفي حديث يوم أحد لما قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، قال النبي ﷺ أجيبوه: «**الله**

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٤١).

(٣) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٥٧٤).

مولانا ولا مولى لكم»(١)، ووجه الاهتمام بهذه الدعوة أنها جامعة لخيري الدنيا والآخرة؛ لأنهم إذا نُصِروا على العدو، فقد طاب عيشهم وظهر دينهم، وسلموا من الفتنة، ودخل الناس فيه أفواجًا)(٢).

وتقدم أنَّ معاذًا ﷺ كان إذا ختم البقرة قال: آمين. قال ابن عطية ﷺ: (هذا يظن به أنه رواه عن النبي ﷺ، فإن كان ذلك فكمال، وإن كان بقياس على سورة الحمد من حيث هناك دعاء وهنا دعاء؛ فحسن)(٣).

فوائد ولطائف:

الأولى: من الحكم في ختم السورة بهاتين الآيتين:

قال الزجاج ﷺ: (ولما ذكر الله جلَّ وعزَّ فَرْضَ الصلاة، والزكاة، والطلاق، والحيض، والإيلاءِ، والجهاد، وأقاصيص الأنبياءِ، والدَّيْن، والربا، ختم السورة بذكر تعظيمه، وذكر تصديق نبيه ﷺ، والمؤمنين بجميع ذلك فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ أي: صدَّق الرسول بجميع هذه الأشياء التي جرى ذكرها، وكذلك المؤْمنون)(٤).

(١) صحيح البخاري (٤/ ٦٥) برقم (٣٠٣٩) عن البراء بن عازب ﷺ.
(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٤٢).
(٣) المحرر الوجيز (١/ ٣٩٥).
(٤) معاني القرآن للزجاج (١/ ٣٦٨).

الثانية: مدلول السمع والطاعة للوحي:

يدل السمع والطاعة للوحي على وجوب طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ. قال ﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقد أفرد الله ﷻ طاعة رسوله ﷺ بالذكر في آيات كثيرة، وذكر الله ﷻ عقاب وشناعة الجرم في عدم طاعة الرسول ﷺ، فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النور:٦٣].

والأمر بالسمع والطاعة يقع على الوارد في كلام الله ﷻ وهو القرآن العظيم، وعلى الثابت من كلام رسوله ﷺ، وكذا سائر ما ورد في سنته من أفعاله وتقريراته ﷺ.

الثالثة: ثمرة السمع والطاعة:

قال القرطبي ؒ: (ولما تقرر الأمر على أن قالوا: (سمعنا وأطعنا) مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية، ورفع المشقة في أمر الخواطر عنهم، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى، كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من ذمهم وتحميلهم المشقات من الذلة والمسكنة والانجلاء، إذ قالوا: (سمعنا وعصينا)، وهذه ثمرة العصيان والتمرد على الله تعالى)[1].

قال ابن القيم ؒ: (ولما أنزل الله سبحانه قوله: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[البقرة٢٨٤] أشكل ذلك على بعض الصحابة وظنوا أن ذلك

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٤٢٧).

من تكليفهم ما لا يطيقونه؛ فأمرهم النبي ﷺ أن يقابلوا النص بالقبول لا بالعصيان؛ فبين الله ﷻ بعد ذلك أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأنه لا يؤاخذهم بما نسوه وأخطئوا فيه، وأنه لا يحمل عليهم إصرًا كما حمله على الذين من قبلهم، وأنه لا يحمِّلهم ما لا طاقة لهم به، وأنهم إن قصَّروا في بعض ما أُمِروا به أو نُهُوا عنه ثم استعفوه، واستغفروه عفا عنهم وغفر لهم ورحمهم؛ فانظر ماذا أعطاهم الله لما قابلوا خبره بالرضا والتسليم والقبول والانقياد، دون المعارضة والرد)[1].

الخلاصة في دلالات خواتيم سورة البقرة:

سورة البقرة مليئة بالأحكام، وورد في فضلها أحاديث صحيحة، وهناك حِكَم بالغة في ختمها بهذه الآيات الثلاث:

الآية الأولى (آية الابتلاء) :

ظهر فيها فضل الصحابة ﵃، وانقيادهم المطلق للنبي ﷺ، واتباعهم لأوامره ﷺ واجتناب نواهيه، وبهذه الآية ظهر فضلهم على من جاء بعدهم وكذلك في آيات أخرى.

ولذا علينا أن لا نستغرب من أمر الله ﷻ لمن جاء بعدهم من هذه الأمة أن يتبعوا السابقين الأولين بإحسان كما في سورة التوبة حيث يقول ﷻ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٥٨، ١٠٥٩).

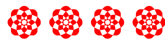
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠]، وكذا تذكيره بالدعاء للصحابة من المهاجرين والأنصار كما في سورة الحشر؛ حيث قال سبحانه بعد ثنائه عليهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر:١٠].

الآية الثانية (آية أركان الإيمان):

فيها بيان خمسة أركان من أركان الإيمان وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكذا بيان المنهج الذي سار عليه جميع الرسل، والصحابة مع إمامهم سيد المرسلين ﷺ، وذلك هو السمع والطاعة، والخوف من رب العزة ﷻ، وإدراك حقيقة الوقوف والحساب بين يدي الله تعالى، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨ - ٨٩]، وهذا المنهج يدخل فيه من تحقق بهذه الأوصاف المذكورة؛ فالعبرة بالأوصاف لا بالمسميات.

الآية الأخيرة (آية التخفيف):

فيها الإشارة إلى الركن السادس (القضاء والقدر)، وفيها التخفيف عن المسلمين ورفع الآصار والمشقة عنهم، وفيها الدعاء العظيم وأثره في حياة المسلم، وتأمل في تكرار "ربنا" في هذه الآية؛ بل في عامة ما ورد في القرآن، كما سبق بيانه في "غفرانك ربنا"، وعفوه ومغفرته ورحمته وولايته ونصره لمن آمن وسمع وأطاع وأناب إليه سبحانه.



المبحث الثاني

الآيات الواردة في التسليم والانقياد لأمر الله، وذم الإعراض والاعتراض وعدم الانقياد

((وكثرة الآيات تدل على صدق ذلك الضابط))

المطلب الأول: الآيات الواردة في التسليم والانقياد لأمر الله.

المطلب الثاني: الآيات الواردة في ذم الإعراض والاعتراض وعدم الانقياد.

المطلب الأول

الآيات الواردة في التسليم والانقياد لأمر الله

وردت عدة نصوص في القرآن الكريم في بيان صفات المؤمنين، ومن أخص صفاتهم التسليم لأمر الله تعالى وعدم الاعتراض عليه، وتلقيها بالقبول والتسليم، ومن ذلك ما سبق الحديث عنه وهو موضوع هذه الرسالة:

١. قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥].

هذا هو الضابط الذي كان عليه رسل الله عليهم السلام، ومنهم خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وهو شعار صحابته الكرام وتابعيهم بإحسان، وهو شعار أهل السنة والجماعة على مر التاريخ الإسلامي، وسبق القول في تقرير أن النص في هذه الآية هو الضابط لما كان عليه الرسل جميعًا، وكذا أتباع سيد المرسلين رضي الله عنهم وأرضاهم.

٢. قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابن كثير رحمه الله: (يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة؛ أنه لا يؤمن أحد حتى يحكِّم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكَم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ أي: إذا حكَّموك يطيعونك في بواطنهم؛ فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكَمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلِّمون لذلك تسليمًا كليًّا، من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة)[١].

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ٣٠٦).

وقال ابن عاشور ﷺ: (أعلم الله الأمة أن هؤلاء لا يكونون مؤمنين حتى يحكِّموا الرسول، ولا يجدوا في أنفسهم حرجًا من حكمه، أي: حرجًا يصرفهم عن تحكيمه، أو يسخطهم من حكمه بعد تحكيمه، وقد عُلِم من هذا أن المؤمنين لا ينصرفون عن تحكيم الرسول، ولا يجدون في أنفسهم حرجًا من قضائه بحكم قياس الأحرى، وليس المراد الحرج الذي يجده المحكوم عليه من كراهية ما يُلْزَمُ به إذا لم يخامره شك في عدل الرسول وفي إصابته وجه الحق، وقد بيَّن الله تعالى في سورة النور كيف يكون الإعراض عن حكم الرسول كفرًا، سواء كان من منافق أم من مؤمن...؛ لأن حكم الرسول بما شرع الله من الأحكام لا يحتمل الحيف[(١)]؛ إذ لا يشرع الله إلا الحق، ولا يخالف الرسول في حكمه شرع الله تعالى؛ ولهذا كانت هذه الآية خاصة بحكم الرسول ﷺ، فأما الإعراض عن حكم غير الرسول فليس بكفر إذا جوَّز الـمُعْرِض على الحاكم عدم إصابته حكم الله تعالى، أو عدم العدل في الحكم)[(٢)].

فهناك فرق بين قضاة المسلمين الذين يحكمون بشرع الله فمنهم المصيب فله أجران، ومنهم المخطئ وله أجر واحد؛ للحديث الصريح: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**»[(٣)]، ومنهم من اتبع هواه نسأل الله العافية.

---

(١) الحَيْفُ هو: الجور والظلم. انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٤/ ١٣٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١١١).

(٣) صحيح البخاري (٩/ ١٠٨) برقم: (٧٣٥٢)، صحيح مسلم (٣/ ١٣٤٢) برقم: (١٧١٦)، عن عمرو بن العاص ﷺ.

إذَنْ الطعن في ذات القاضي واجتهاده بأنه غير عدل أو أنه لم يصب في اجتهاده، أو أنه خالف الحقائق الشرعية من الأدلة - هذا الطعن ليس بكفر، وأما الطعن في حكم الله تعالى أو حكم رسوله ﷺ فهذا ينطبق عليه نص الآية؛ لأنه اعتراض على حكم الله تعالى أو حكم الرسول ﷺ.

٣. قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ [المائدة:٧].

عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: (يعني: حيث بعث الله النبي ﷺ، وأنزل عليه الكتاب، قالوا: آمنا بالنبي ﷺ، وبالكتاب، وأقررنا بما في التوراة، فذكَّرهم الله ميثاقه الذي أقروا به على أنفسهم وأمرهم بالوفاء به)(١).

قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى مذكرًا عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعته ومناصرته ومؤازرته، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون رسول الله ﷺ عليها عند إسلامهم، كما قالوا: «**بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وأَثَرَة علينا، وألا ننازع الأمر أهله**»(٢))(٣).

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ٢٥٦) برقم (١٣٠٣١).

(٢) صحيح البخاري (٩/ ٤٧) برقم (٧٠٥٥) صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٠) برقم (١٧٠٩)، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٣) تفسير ابن كثير ط العلمية (٣/ ٥٥).

٤. قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب:٣٦].

قال ابن كثير ﵀: (فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول)[١].

٥. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال:٢٤].

قال ابن القيم ﵀: (أخبر ﷺ أن حياتنا إنما هي بما يدعونا إليه الرسول من العلم والإيمان، فعُلِم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك، وشبَّه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور، وهذا من أحسن التشبيه؛ فإن أبدانهم قبور لقلوبهم، فقد ماتت قلوبهم وقُبِرت في أبدانهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر:٢٢])[٢].

ولابن القيم كلام نفيس ومهم حول هذه الآية حيث قال ﵀:

(فتضمنت هذه الآية أمورًا:

أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (٦/ ٣٧٧).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٢).

تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول؛ فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة؛ فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول. قال مجاهد: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني: للحق، وقال قتادة: هو هذا القرآن، وقال السدي: هو الإسلام أحياهم به بعد موتهم بالكفر..، قال الواحدي: والأكثرون على أن معنى قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو الجهاد..

يقول ابن القيم: والآية تتناول هذا كله؛ فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحيي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة، والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة، فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة، والإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة: حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار، ويؤثر ما ينفعه على ما يضره، ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك، ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك، وحياة قلبه وروحه التي بها يميِّز بين الحق والباطل والغيِّ والرشاد والهوى والضلال؛ فيختار الحق على ضده، فتفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والإرادات والأعمال، وتفيده قوة الإيمان والإرادة والحب للحق وقوة البُغض والكراهة للباطل؛ فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته بحسب نصيبه من هذه الحياة، كما أن البدن الحي يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتم،

ويكون ميله إلى النافع ونفرته عن المؤلم أعظم؛ فهذا بحسب حياة البدن، وذاك بحساب حياة القلب؛ فإذا بطلت حياته بطل تمييزه، وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضار..

وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾، المشهور في الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وبين طاعته، وهذا قول ابن عباس وجمهور المفسرين، وفي الآية قول آخر: أن المعنى أنه سبحانه قريب من قلبه، لا تخفى عليه خافية؛ فهو بينه وبين قلبه. ذكره الواحدي عن قتادة، وكأن هذا أنسب بالسياق؛ لأن الاستجابة أصلها بالقلب، فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب؛ فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه؛ فيعلم هل استجاب له قلبه وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه... ففي الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب وإن استجاب بالجوارح، وفي الآية سر آخر وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به -وهو الاستجابة- وبين القدر والإيمان به، فهي كقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[التكوير:٢٨-٢٩]، وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[المدثر:٥٥-٥٦]، والله أعلم)[١].

وهناك آيات أخرى غير ما تقدم فيمن سلَّم وانقاد أذكر بعضها تباعًا، وهي:

١. قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ

---

(١) مختصرًا، وانظره بطوله في الفوائد (ص:٨٨- ٩١).

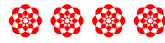
مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[النساء:٥٩].

٢. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾[النور:٥١-٥٢].

٣. قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[الحشر:٧].

٤. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾[الحجرات:١].

والنصوص من القرآن الكريم في هذا الباب كثيرة، وما سبق فيه بركة.



المطلب الثاني

الآيات الواردة في ذم الإعراض والاعتراض وعدم الانقياد

الآيات السابقة في الأمر بالسمع والطاعة والانقياد تتضمن في ذاتها أو دلالتها ذم الإعراض وعدم الانقياد، وأول ما نذكر في ذلك ما جرى لموسى ﷺ مع بني إسرائيل، حيث أن الإعراض هو سبب غضب المولى ﷻ، وهل كان هلاك الأمم السابقة إلا بسبب الإعراض وعدم الانقياد وعدم السمع والطاعة والتسليم لأمر الله تعالى.

١. قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾[البقرة:٦٧-٦٨].

عن عبيدة السلماني قال: «كان رجل في بني إسرائيل عقيم لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلًا فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدَّعيه عليهم، حتى تسلَّحوا وركب بعضهم إلى بعض، فقال ذوو الرأي وَالنُّهَى: علامَ يقتل بعضكم بعضًا، وهذا رسول الله ﷺ فيكم؟ فأتوا موسى ﷺ فذكروا ذلك له فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾، فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾، قال: فلو لم يعترضوا البقرة لأجزت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشُدِّد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبًا؛ فأخذوها بملء جلدها ذهبًا؛ فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا (لابن أخيه)، ثم مال ميتًا، فلم يُعطَ من ماله شيءٌ، ولم يُورَّث قاتلٌ بعد»(١)، فانظر كيف

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٣٦) برقم (٦٩٠).

أصابهم العنت والمشقة؛ لما تباطئوا عن السمع والطاعة لنبي الله موسى ﷺ، فكيف -إذَنْ- ستكون عاقبة من ترك السمع والطاعة؟!

٢. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة:٩٢-٩٣].

قال ابن كثير رحمه الله: (يُعَدِّد تعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق وعتوَّهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه؛ ولهذا قال: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾)[(١)].

إن أوصاف وطباع بني إسرائيل هي ذاتها تنتقل من جيل إلى آخر بالتوارث الجيني، قال ﷺ: «تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا»، متفق عليه[(٢)]، ولفظ مسلم: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة...»، وزاد: «والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

والمتأمل في هذه الآية العظيمة: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ ...﴾ وفي غيرها

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (٦/ ٣٧٧).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٧٨) برقم: (٣٤٩٣)، صحيح مسلم (٤/ ٢٠٣١) برقم: (٢٦٣٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

من الآيات التي أنزلت في بني إسرائيل -لا سيما في سورة البقرة- يجد أن الخطاب يأتي بضمير المخاطب، كما في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ﴾... ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ﴾[البقرة:٩٢]، وفي قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾[البقرة:٦٣].

لكن الخطاب تحوَّل إلى ضمير الغائب في الآية الثانية التي بعدها؛ فقال سبحانه: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[البقرة:٩٣]، ثم رجع إلى ضمير المخاطب مرة أخرى، فقال سبحانه: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾[البقرة:٩٣]، وهذا متكرر في آيات متعددة أخرى، والعلة في هذا - والعلم عند الله ﷻ - أن هؤلاء اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ هم كأسلافهم الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، والله تعالى أراد أن يبيِّن تعنتهم مع موسى، وكذلك هو طبعهم إلى عهد محمد ﷺ، وإلى يومنا هذا، وكما يقال: الجينات مؤثرة في الإنسان وتنتقل معه، فهذه طبيعة اليهود لا تتغير إلى اليوم. نسأل الله العافية والسلامة.

٣. قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾[النساء:٤٦].

قال ابن كثير رحمه الله: (أي: يقولون: سمعنا ما قلته يا محمد، ولا نطيعك فيه. هكذا فسره مجاهد وابن زيد، وهو المراد، وهذا أبلغ في عنادهم وكفرهم،

أنهم يتولون عن كتاب الله تعالى بعدما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة، ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾؛ أي: اسمع ما نقول، لا سمعت. رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال مجاهد والحسن: واسمع غير مقبول منك. قال ابن جرير: والأول أصح، وهو كما قال. وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)[١].

وعن عائشة أم المؤمنين ﵂: «أن اليهود أتوا النبي ﷺ، فقالوا: السام عليك، قال: وعليكم، فقالت عائشة: السام عليكم، ولعنكم الله وغضب عليكم، فقال رسول الله ﷺ: **مهلًا يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف، أو الفحش**، قالت: أوَ لم تسمع ما قالوا؟! قال: **أوَ لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم فيَّ**»[٢].

وانظر في (مِنْ) التبعيضية في الآية: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ [النساء:٤٦]؛ حيث أخرجت من آمن منهم –وهي دعوة لمن في قلبه رغبة في الإيمان أن يؤمن– فلم يحكم عليهم كلهم بل بعضهم، والخطاب هنا لليهود في عهده ﷺ، وانظر إلى طبعهم اللئيم في قولهم: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا﴾، حيث أتوا بالكلام الذي يحتمل السب والمدح؛ لإيهام أنهم يقصدون ظاهره، في حين أن مقصودهم غير ظاهره، وطبعهم مع رسل الله تعالى هو طبعهم لم يتغير إلى اليوم. نسأل الله العافية والسلامة.

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ٢٨٥).

(٢) صحيح البخاري (٨/ ٨٥) برقم: (٦٤٠١).

٤. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾[النساء: ٦٠-٦١].

قال ابن كثير ﷺ: (هذا إنكار من الله ﷻ على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد. وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف(١). وقيل: في جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية. وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامَّة لمن عَدَل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا... وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ أي: يعرضون عنك إعراضًا كالمستكبرين عن ذلك، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾[لقمان: ٢١]، وهؤلاء

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٩١) برقم (٥٥٤٨) عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرسلًا، وعزاه ابن حجر إلى إسحاق بن راهويه في تفسيره بإسناد صحيح إلى الشعبي مرسلًا، وقوّاه بطريق أخرى للطبري في تفسيره عن مجاهد مرسلًا بإسناد صحيح. انظر: فتح الباري لابن حجر (٥/ ٣٧)، تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٨/ ٥١٢) برقم (٩٨٩٩).

بخلاف المؤمنين، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١] [(١)].

٥. قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

فائدة عزيزة في غاية الأهمية:

في هذه الآية دلالة ظاهرة على حفظ سنة الرسول ﷺ؛ لأن الله تعالى توعد خلقه بالعذاب إذا خالفوا هدي النبي ﷺ، فكيف يتم هذا الوعيد إذا قلنا أن سنة النبي ﷺ ضاعت بإحالتهم إلى مجهول أو هدي مغشوش جله معتمد على كذب موضوع، فالله ﷻ أجلُّ من أن يحيل عباده على الكذب للعمل به، أو يحيلهم على هدي غير موجود.

ونحن ندرك جميعًا -حتى المستشرقين الذين درسوا السنة وعلم الرجال وعندهم حرص على الإنصاف- يقررون أن الصحابة ﷺ وطلابهم ومن جاء بعدهم أصَّلوا علم الجرح والتعديل؛ لتنقية سنة النبي ﷺ.

والدارس لسيَر الصحابة وكبار طلابهم يدرك يقينًا حرصهم على تبليغ ما حفظوه من حديث رسول الله ﷺ، من أقواله وأفعاله وتقريراته وسيرته وصفاته، وكذلك حرص زوجاته على تبليغ ما دار في بيته ﷺ.

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ٣٠٥).

فائدة لطيفة مهمة:

أن الله ﷻ قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦﴾[محمد:١٦]، وفيها دلالة على طمس قلوب المنافقين، وعدم حفظهم وفهمهم لكلام الرسول ﷺ، وبالتالي لا يوجد ثمة حديث معتبر رواه منافق عن الرسول ﷺ؛ لدلالة الآية الصريحة الواضحة.

قال ابن كثير ؒ: (ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبيَّن له واتضح له. وقوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقًا، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفًا لهم وتعظيمًا لنبيهم ﷺ)[1].

وهذه الآية آية عظيمة في التحذير من البدع، وكذا في التحذير من مخالفة ما اتفقت عليه الأمة، وقد استدل بها الشافعي ﷺ وغيره على حجية الإجماع[2]، لما سأله رجل عن الدليل من القرآن على أن اتفاق الأمة حجة في دين الله، فتغير لون الشافعي، واعتكف في منزله ثلاثة أيام يقرأ القرآن في كل يوم وليلة ثلاث مرات، ثم خرج عليهم، وأجاب السائل بقوله تعالى: ﴿وَمَن

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ٣٦٥).

(٢) ذكره الإمام البيهقي في كتاب المدخل إلى السنن (١/ ٤٠٨)، وقال السبكي في طبقات الشافعية: سند هذه الحكاية صحيح لا غبار عليه.

يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[النساء:١١٥].

فما كان قد انعقد عليه الإجماع فلا شك ولا ريب أن مخالفته فيه خطورة شديدة، وإذا كان قد سبق فيه خلاف في القرون المفضلة، فأيضًا لا يسوغ لمن يدعي الاجتهاد أو المتعالم أن يحدث قولًا جديدًا؛ لأن الأمة إنما اختلفت على قولين أو ثلاثة فحسب، وأذكر من وصايا شيخنا ابن عثيمين لي: إياك إياك أن تخالف اتفاق الأئمة الأربعة إلا وأنت معتمد على أساس صلب عندك فيه من الله برهان.

والآية كأنها ترد على من تساهل في الفتاوى اليوم، ممن أخذ يفتي على ما يراه، حتى ولو لم يسبقه إلى قوله أحد من الأئمة. نسأل الله العافية والسلامة.

٦. قوله تعالى: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[النور:٦٣].

قال ابن كثير ﵀: (أي: عن أمر رسول الله ﷺ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله، كائنًا ما كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رَد**»[(١)]، أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنًا أو ظاهرًا، ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ أي: في قلوبهم؛ من كفر، أو نفاق، أو بدعة ﴿أَوۡ

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٨٤) برقم (٢٦٩٧)، صحيح مسلم (٣/ ١٣٤٣) برقم (١٧١٨) عن عائشة ﵂، واللفظ لمسلم.

يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أي: في الدنيا بقتل، أو حدٍّ، أو حبس، أو نحو ذلك)[١].

وفي الآية دلالة على ظهور هدي النبي ﷺ على مر العصور، ويشهد لذلك حديث الرسول ﷺ حيث يقول: «**لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون**»[٢]، فمن خالف هدي النبي ﷺ فهو على خطر عظيم، وهديه ﷺ من حيث حفظ الله له تابع للقرآن الكريم الذي جعله الله نورًا مبينًا للمؤمنين، وإقامة للحجة على الكافرين في البلاغ.

٧. **قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة: ٩٢].**

قال ابن عطية رحمه الله: (حذَّر تعالى من مخالفة الأمر، وتوعد من تولى بعذاب الآخرة)[٣].

أفرد الله طاعة رسوله بالأمر، وفيه دلالة عظيمة على وجوب طاعة الرسول ﷺ بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى، وهذا في عدة مواضع من القرآن.

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (٦/ ٨٢).

(٢) صحيح البخاري (٩/ ١٠١) برقم (٧٣١١)، صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٣) برقم (١٩٢١) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٢٣٤).

موقف المشركين وأهل الضلال ومن سار على طريقتهم ممن يظهر الإسلام (المنافقين) من السمع والطاعة لما ورد في الوحيين:

يتمثل موقفهم في عدة أمور منها:

١ - المجادلة بالباطل:

قال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٥﴾[غافر:٥]. أي: أن المعرضين وأهل الضلال رغم معرفتهم ببطلان اعتراضهم وتكذيبهم يتخذون من الجدال والخصومة بالباطل سبيلًا لغرض إبطال الحق الذي جاء من عند الله، والذي فيه الأمر بتوحيد الله والبراءة من الشرك، والتسليم والاتباع والانقياد لله ﷻ والخضوع له، وامتثال أمر النبي ﷺ، ولكن المصير والنهاية أن الله غالب على أمره، فأخذهم بعذاب من عنده وجعلهم عظة وعبرة.

ومن أنواع الجدل المذموم في القرآن:

١ - الجدال بالباطل لدحض الحق، كما دلت عليه الآية السابقة.

٢ - المجادلة في الحق بعدما تبين، يقول ﷻ: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ٦﴾[الأنفال:٦].

٣- المجادلة بغير علم، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٦٦﴾[آل عمران:٦٦].

٢ - المعاندة وجحد الحق بعد ظهوره استكبارًا:

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾[المدثر:١٦-٢٥]. إن من طبيعة أهل الباطل ازدراء الحق ورفض الإذعان للحقيقة والقبول بها حتى لو بانت وظهرت كالشمس في رابعة النهار، فقلوب المعرضين غُلف وآذانهم صمٌّ عن ذلك، وهذه الآيات تحكي نموذجًا من نماذج هؤلاء المعاندين بعد أن بان له الحق، وهو الوليد بن المغيرة الذي ذكر الله في شأنه ما أنعم عليه من المال الواسع الكثير، والأولاد الذين لا يغيبون عنه، ويسر له سبل العيش والجاه، وفوق هذا يطمع أن يزيده الله ويبسط عليه أكثر من ذلك، ولما جاءه الحق من عند الله قابله بالجحود والنكران، وفكر مرة تلو الأخرى بماذا يطعن في القرآن، بعد أن بانت له حقيقة القرآن وصِدقه وأنه من عند الله، حتى بدا تأثير ذلك على وجهه وعرفه القوم، ثم اختار التولي وأعطى الحق ظهره، وقال إن القرآن سحر ينقل عن الأولين وأنه من كلام الناس.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾[غافر:٥٦]. وفي هذه الآية تبيين لمنهج أهل الكفر والنفاق في الجدال، وأن جدالهم في آيات الله خالٍ من الحجج والبراهين، وهذا خلاف المنطق والعقل، فالأصل أن المعترض يأتي بدليل يؤيد اعتراضه، كما تبين الآية سببًا من أسباب جحود الحق واللجج في الباطل وهو الكبر المستقر في قلوب المبطلين، يصدهم عن الاتباع والانقياد للحق، ولكن الأمر صعب المنال عليهم، فتبقى شمس الحق مشرقة، ومن

المحال إطفاء نور الله مهما صنع أهل الباطل من الجدل والتلبيس.

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤]، تدل الآية على أن أعداء الحق والمعرضين عن الانقياد لله ﷺ يعرفون آيات الله ويقرون بها، ولكنهم يجحدونها رغم استقرارها في نفوسهم، وكل ذلك دافعه الظلم والتكبر وحب العلو.

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾[هود:٥٩]. وهنا سبب آخر من أسباب الجحود والعصيان ورفض الحق، وهو التعصب الأعمى والتقليد بلا حجة للمتبوعين والقادة والجبابرة المعاندين.

٣- الإعراض عن معرفة الحق:

قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾[المدثر:٤٨-٥١]، والتشبيه في الآية لبيان شدة نفورهم من التذكير، والاستفهام للتعجب من إصرارهم على الباطل وإعراضهم عن الحق.

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾[القمر:٢]. ودأب المشركون على وصف الآيات بالسحر وكذلك الجنون؛ لأنها دعوى يستطيعون من خلالها التملص من مواجهة القرآن بالحجة والبرهان والإقناع، فأهل الباطل يتفننون في اختيار أكاذيبهم التي يمكن أن تنطلي على عقول الناس، وتكون في ذات الوقت دعوى غير مكلفة ولا ملزمة لهم بشيء، ولكن ليس لهم حجة صحيحة في ذلك غير تقليد الآباء والأجداد، وحجتهم

أوهى من بيت العنكبوت؛ حيث قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

٤ - الشَّك والارتياب:

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾[الكهف:٣٥-٣٨].

قال الطبري ﷺ: (قال لما عاين جنته، ورآها وما فيها من الأشجار والثمار والزروع والأنهار المطردة شكًّا في المعاد إلى الله: ما أظن أن تبيد هذه الجنة أبدًا، ولا تفنى ولا تخرب، وما أظن الساعة التي وعد الله خلقه الحشر فيها تقوم فتحدث، ثم تمنى أمنية أخرى على شك منه، فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ فرجعت إليه، وهو غير موقن أنه راجع إليه، ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ يقول: لأجدن خيرًا من جنتي هذه عند الله إن رددت إليه مرجعًا ومردًّا، يقول: لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلا ولي عنده أفضل منها في المعاد إن رددت إليه)[١].

٥ - التَّكذيب:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾[العنكبوت:٦٨]. تبين الآية أن التكذيب بالحق والكذب بالافتراء على الله أشد الظلم.

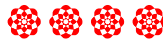
(١) جامع البيان (١٨/ ٢٢).

والكذب قسمان:

١. التكذيب بالحق مع العلم به، كقصة حيي بن أخطب، تقول صفية أم المؤمنين ﵂: «سمعت عمي أبا ياسر، يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم، والله. قال: تعرفه بعينه وصفته؟ فقال: نعم، والله، قال: فماذا في نفسك منه، قال: عداوته والله ما بقيت»[(١)]. وعندما قدم لقتله يوم قريظة قال لرسول الله ﷺ: "أما والله ما لمت نفسي في معاداتك، ولكن من يغالب الله يغلب"[(٢)].

٢. الكذب على أهل الحق، كحال عبدالله بن سبأ، حيث أظهر الإسلام، وأظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصار له أصحاب في الأمصار، ثم أظهر الطعن على الأمراء، ثم أظهر الطعن على عثمان ﵁، ثم طعن على أبي بكر وعمر ﵄، ثم أظهر أنه يتولى عليًّا ﵁، وقال: إنه كان لكل نبي وصي، وكان عليٌّ وصي محمد[(٣)].

هذه الأسباب الخمسة واضحة الدلالة، ومعاني الآيات فيها ظاهرة بينة، وقد حرصت على الاختصار في ذلك -مع أهمية هذا المبحث- لأن المتأثرين بالمشركين وأهل الضلال كثيرون، ولهم أسماء متعددة، والغرض هو التنبيه على الخلل ووجهه.



---

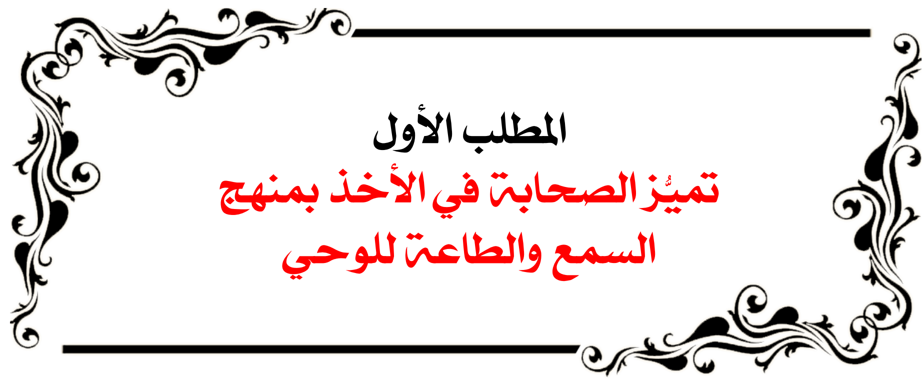
(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٣٣).
(٢) الرحيق المختوم (ص:٢٩١).
(٣) انظر: الشريعة للآجري (٤/ ١٩٧٩)، (٤/ ١٩٨٤).

المبحث الثالث
حال السلف مع السمع والطاعة للوحي

المطلب الأول: تميُّز الصحابة في الأخذ بمنهج السمع والطاعة للوحي.

المطلب الثاني: مواقف من حياة السلف في السمع والطاعة للوحي.

المطلب الثالث: من أقوال أهل العلم في السمع والطاعة للوحي وعدم ردِّه.



المطلب الأول

تميُّز الصحابة في الأخذ بمنهج السمع والطاعة للوحي

إن منهج السلف يقوم على ثلاثة أركان هي خواتيم سورة البقرة:

الأمر الأول: ﴿سَمِعْنَا﴾.

الثاني: ﴿وَأَطَعْنَا﴾.

الثالث: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾.

فمنهجهم: (**التصديق المطلق للأخبار، والطاعة المطلقة للأوامر والحرص على اجتناب النواهي، مع الخضوع والذل لله رب العالمين**). وهذا هو الضابط كما سبق بيانه.

يقول ابن القيم ﵀: (فإن التسليم ضد المنازعة، والمنازعة: إما بشبهة فاسدة، تعارض الإيمان بالخبر عما وصف الله به نفسه من صفاته وأفعاله، وما أخبر به عن اليوم الآخر وغير ذلك؛ فالتسليم له: ترك منازعته بشبهات المتكلمين الباطلة.

وإما بشهوة تعارض أمر الله ﷻ؛ فالتسليم للأمر بالتخلص منها.

أو إرادة تعارض مراد الله من عبده، فتعارضه إرادة تتعلق بمراد العبد من الرَّب؛ فالتسليم بالتخلص منها.

أو اعتراض يعارض حكمته في خلقه وأمره، بأن يظن أن مقتضى الحكمة خلاف ما شرع، وخلاف ما قضى وقدَّر؛ فالتسليم: التخلص من هذه المنازعات كلها.

وبهذا يتبين أنه من أجلِّ مقامات الإيمان، وأعلى طرق الخاصة، وأن التسليم هو محض الصِّديقيَّة، التي هي بعد درجة النبوة، وأن أكمل الناس

تسليمًا: أكملهم صِّديقيَّة)[١].

وأما من أعرض ولم يسلِّم، فإن الله تعالى يعاقبه بأن يصرفه ويزيغه عن الهدى.

قال ابن القيم ﵀: (والله سبحانه يعاقب من فتح له بابًا من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يمكِّنه بعدُ من إرادته عقوبةً له، فمن لم يستجب لله ورسوله إذا دعاه حال بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه الاستجابة بعد ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾[الأنفال:٢٤]، وقد صرح الله سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[الأنعام:١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[الصف:٥]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٥﴾[التوبة:١١٥])[٢].

ولهذا تجد عامة آيات القرآن الكريم التي تنص على لفظة التسليم أو تحمل معناها إنما جاءت في سياق خطابها للمؤمنين؛ فالتسليم ورد في القرآن في موضعين، كلاهما كان الخطاب فيه للمؤمنين:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ٢٢﴾[الأحزاب:٢٢]، فهم مؤمنون ومجاهدون، ومع هذا فقد ازداد التسليم في قلوبهم. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٤٧).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٠٢، ٥٠٣).

شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء:٦٥]، فهو خطاب لمن يظهر الإسلام بأن لا بد له من تحكيم الرسول، ثم التسليم لحكمه.

وقد نهاهم الله عن خصالٍ تنافي كمال التسليم ونبههم على الخطورة في ذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[الحجرات:١]، ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[النور:٦٣].

وأمرهم بسرعة الاستجابة لأمره وأمر رسوله ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال:٢٤].

وإن تنازعوا فيجب تسليمهم لله ورسوله: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء:٥٩]. ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الشورى:١٠]. ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[النور:٥١]. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب:٣٦]، فهؤلاء مؤمنون ومسلمون، بل من سادة أهل الإيمان؛ صحابة النبي ﷺ، ومع ذلك جاء الخطاب إليهم بالانقياد والرضا والتسليم لأمر الله وأمر رسوله ﷺ.

وبهذا الأمر (**السمع والطاعة**) سبق الصحابة غيرهم في تاريخ الإسلام كله، وفي تاريخ البشرية جميعًا عدا الأنبياء عليهم السلام، ثم لم يتكرر هذا الجيل مرة أخرى. نعم؛ وُجِد أفراد وزُمَر بذلوا جهدهم فيدخلون في القليل كما قال ﷻ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾[الواقعة:١٣-١٤].

أسباب تميز الصحابة في الأخذ بمنهج السمع والطاعة للوحي:

يأتي هذا البحث لتقرير هذه القاعدة، وهي الاهتمام بما كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه الكرام وكبار طلابهم ثم صغارهم في القرون الثلاثة المفضلة، ونذكر القارئ الكريم بأن الله ذكر في سورة التوبة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾[التوبة:١٠٠]، فجعل اتباعهم منجاة، وشهد ﷻ لهم بالرضوان، وفي ختام الآية: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾، وهذا هو الجزاء الذي أعده لهم في الآخرة، وقد سلموا ﵃ من الانحرافات العقدية كبيرها وصغيرها.

وهناك أمور تميَّز بها الصحابة ﵃، كانت هي سر انتشار الإسلام على أيديهم، وسر الانتصارات التي حصلت لهم، وكانت أيضًا سر تأييد الله ﷻ لهم وتحقيقه ما وعدهم به في قوله ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[النور:٥٥]، فقد حقق الله ﷻ لهم ما وعدهم من الاستخلاف والتمكين والأمن؛ لأنهم استحقوا ذلك.

وأسباب ذلك -والله أعلم- تعود إلى عدة أمور منها:

الأول: وجود الرسول ﷺ بين أظهرهم، وقد ذكر الله ﷻ هذه المِنَّة عليهم في قوله ﷻ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات: ٧-٨].

قال السعدي ﵀: (أي: ليكن لديكم معلومًا أن رسول الله ﷺ بين أظهركم، وهو الرسول الكريم، البار، الراشد، الذي يريد بكم الخير وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرَّة ما لا يوافقكم الرسول عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشقَّ عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالى يحبب إليكم الإيمان، ويزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما ينصب على الحق من الشواهد، والأدلة الدالة على صحته، وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم، من توفيقه للإنابة إليه... وقوله: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾؛ أي: ذلك الخير الذي حصل لهم، هو بفضل الله عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم)[(١)].

وقال ابن كثير ﵀: (﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظِّموه ووقِّروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره؛ فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم... وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم)[(٢)].

الثاني: أن الله ﷻ كلَّف النبي ﷺ بتزكيتهم -وهو من بلَغ الكمال البشري، وهو أفضل الخلق- وتزكية النفوس شأنها عظيم عند الله ﷻ؛ فقد أقسم

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٠٠).

(٢) تفسير ابن كثير ط العلمية (٧/ ٣٤٨).

تعالى بأيمان كثيرة أن من زكَّى نفسه فقد أفلح، ومن لا فقد خاب وخسر، قال ﷺ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾[الشمس:١-٢] إلى أن قال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[الشمس:٩-١٠].

وقد قام ﷺ بما كلَّفه الله ﷻ من تزكيتهم خير قيام، وأعانه الله تعالى بالآيات التي أنزلها، والتعقيبات على حوادث السيرة التي ذكرها؛ بتصحيح الخطأ والزلل، بل بادرهم الله ﷻ فنبههم على أمور استباقية؛ لئلا يقعوا فيها كما في مطلع سورة الحجرات، وهذا من الكرامات العظيمة لهم، وهو تخصيص لهم من الله تعالى، فلم يربِّهم ولي من الأولياء، ولا إمام من الأئمة، ولا عالم من العلماء، وليسوا مريدين لفلان من أئمة الصوفية؛ لا للجيلاني، ولا للتيجاني، ولا لغيرهما، سواء من الفضلاء الذين غلا فيهم بعض أتباعهم، أو كان ممن شطح وزاغ ممن يعظمهم الصوفية اليوم، بل تولَّى تربيتهم وتزكيتهم رسول الله ﷺ.

لقد زكَّى الله ﷻ قلوبهم غاية التزكية، في حين كان الناس يتبعون الشهوات، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[آل عمران: ١٤]، ولكنهم كانوا كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾[الحجرات: ٧].

الثالث: أن معلِّم هؤلاء الصحابة ﷺ هو رسول الله ﷺ، وهم طلابه الذين أخذوا عنه العلم، والعلم هو أساس التزكية، وهو أيضًا أساس الإيمان. قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[محمد:١٩]، والله تعالى قد أمر زوجات النبي ﷺ فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ

مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾[الأحزاب: ٣٤]، فما بالك بسائر أصحابه؟ وقد رغب ﷺ أصحابه في التعلُّم والبلاغ، فقال ﷺ: «**بلِّغوا عني ولو آية**»(١)، فأخذوا العلم من فم رسول الله ﷺ مباشرة، فلا مجال للبحث عن صحة الحديث بالنسبة لهم؛ لأنهم تلقوه بآذانهم من الرسول ﷺ بدون واسطة، ومن نسي منهم شيئًا ذكَّره أخوه به، ومن لم يحضر المجلس أو لم يسمع الحديث أخبره به صاحبُه، فقد كانوا يتناوبون على الحضور في مجالس رسول الله ﷺ كما في قصة عمر وصاحبه الأنصاري رضي الله عنهما(٢)، وهذا كان كثيرًا في الصحابة رضي الله عنهم.

الرابع: أن الله ﷻ اصطفاهم وأضاف الدِّين إليهم، قال ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ [البقرة:١٣٦-١٣٧]، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، فنسب الدين والإيمان إليهم، وأخبر أن إيمانهم ودينهم هو الدين الذي ارتضاه الله ﷻ لهم، وهذا يدل على أن الله تعالى قد بلغ بهم الكمال في التمثُّل بهذا الدِّين؛ فهم الذين حملوه ونشروه وطبَّقوه مع رسول الله ﷺ، ويدل على ذلك أيضًا قول الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فجعل الله تعالى اتباعهم

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٧٠) برقم (٣٤٦١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٣٣) برقم (٢٤٦٨)، صحيح مسلم (٢/ ١١٠٨) برقم (١٤٧٩)، عن عمر رضي الله عنه.

بإحسان دينًا قويمًا؛ وذلك لكمال سلوكهم؛ لأنهم قد حرِصوا أشد الحرص على الاقتداء بالرسول ﷺ وقد أنزل الله ﷻ في ذلك آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[الأحزاب:٢١]، وقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران:٣١].

الخامس: أنهم تلقوا الابتلاء والامتحان بالقبول أثناء تنزيل القرآن وأثناء تلاوته، وهذا من فضل الله عليهم، وأنزل الله آيات في تلك الأحداث تدل على فضلهم على هذه الأمة، كما في هذه الآيات الثلاث الأخيرة من سورة البقرة، وهو أيضًا في مواضع من كلام الله ﷻ، كما قال أسيد بن حضير رضي الله عنه لأبي بكر رضي الله عنه: «ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر»[1]، فأنزل الله ﷻ ببركة امتثالهم التخفيف تلو التخفيف.

السادس: أنهم حملوا العلم ونشروه، وهذا يدل على فضلهم رضي الله عنهم؛ فإن النبي ﷺ أرسل منهم رجالًا في حياته ليعلِّموا الناس، فأرسل مصعبًا رضي الله عنه إلى أهل المدينة، وأرسل معاذًا وعليًّا رضي الله عنهما إلى اليمن، وما كانت واقعة بئر الرجيع وبئر معونة إلا في القراء الذين تفرَّغوا للعلم فكانوا في الصُفَّة، ثم اختارهم النبي ﷺ وأرسلهم لتعليم الناس فاستشهدوا جميعًا، وعددهم يزيد على السبعين؛ وكذلك بعد وفاته ﷺ حملوا هذا الدين وبلَّغوه للناس، فمنهم من دُفِن في العراق، ومنهم من دُفِن في الشام، ومنهم من دُفِن في مصر، ومنهم من دُفِن تحت أسوار القسطنطينية، ومنهم من بقي في تلك المناطق؛ يعلِّمون الناس، ويدعون إلى التوحيد، وأصبحوا قدوات يقتدي بهم الناس، فكانوا

(١) صحيح البخاري (١/ ٧٤) برقم (٣٣٤)، صحيح مسلم (١/ ٢٧٩) برقم (٣٦٧) عن عائشة رضي الله عنها.

كما قال ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[(١)].

ولا غروَّ في كثرة ما ورد فيهم من آيات، فقد أنزل الله فيهم مئات الآيات، وكفاهم شرفًا وفخرًا أنهم كانوا يسألون رسول الله ﷺ شفاهًا ويجيبهم ﷺ، كما في كلمة: (يسألونك) واشتقاقاتها، فما بالك إذا نزل الجواب من رب الأرباب ﷻ، فقد سألوا الرسول ﷺ وجاء الجواب من الله ﷻ في محكم التنزيل.

السابع: أن تعلمهم الإسلام كان خالصًا صافيًا لم يختلط بغيره، ولذا غضب النبي ﷺ لما رأى في يد عمر رضي الله عنه نسخة من التوراة، ونهاه عن الأخذ منها[(٢)]، فأخذوا العلم صافيًا من رسول الله ﷺ، وقد ساعد على ذلك أنهم كانوا أمة أمية؛ فلم يكن فيهم من يقرأ ويكتب إلا أفرادًا معدودين على الأصابع، ولم يكن عندهم حضارة، فكان أول ما تعلموه من العلم هو الإسلام، وهذا مما اقتضت حكمة الله ﷻ.

الثامن: أنهم عاشوا الجاهلية وعرفوا سيئاتها وقبائحها ومرارة ما فيها، ثم خلعوها ووضعوها تحت أقدامهم، حين عرفوا الإسلام، ورأوا البون الشاسع بين حياة الجاهلية وحياة الإسلام؛ فأدركوا معنى القرآن وفهموه؛ وذاقوا حلاوة الإيمان والسكينة، وقد قال عمر رضي الله عنه: «والله لقد علمت متى تهلك العرب؛ إذا ساسهم من لم يصحب النبي ﷺ فيقيده الورع، أو يدرك

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٧١) برقم (٢٦٥٢)، صحيح مسلم (٤/ ١٩٦٣) برقم (٢٥٣٣) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) سنن الدارمي (١/ ٤٠٣) برقم (٤٤٩) عن جابر رضي الله عنه، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٦٨) برقم (١٩٤).

الجاهلية فيأخذ بأحلامهم»[١].

التاسع: اقتضت حكمته ﷻ أن يكون الصحابة أميِّين مع رسولهم ﷺ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، فلا يقرؤون ولا يكتبون، ولم يكن لديهم مرتكزات في الحضارة والتخطيط وإدارة الملك والسياسة، إنما كانت تسوسهم أعراف القبائل وعاداتها حتى جاءهم الإسلام.

العاشر: أن الصحابة ﷺ حرصوا أن يكونوا قدوات؛ فأسلم على أيديهم عامَّة أهل الشام، وتركوا لغاتهم ودياناتهم، ومثل هذا عن أهل مصر والعراق، لأنهم ﷺ مثَّلوا الإسلام وكانوا دعاة بالقدوات، عليهم رضوان الله تعالى.

وهذه أسباب عشرة تكفي، وفيها مزيدٌ لمن أراد أن يبحث في ذلك.

إن أعظم ما تميَّز به جيل الصحابة ﷺ هو التسليم والانقياد للنبي ﷺ، والسمع والطاعة لأوامره، وهذا جعل لهم فضلًا على هذه الأمة، وفازوا بهذا الأجر العظيم الوارد في آخر سورة البقرة، حين نجحوا في هذا الابتلاء.

الله يبتلي عباده بما يشاء، فقد ابتلى اليهود بما هو أقل من ذلك. قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[البقرة:٥٨]، فقالوا: حنطة. نسأل الله العافية والسلامة. وأما أصحاب الرسول ﷺ فلم يجادلوا، بل سلَّموا وأطاعوا؛ ففازوا وأنزل الله تعالى التخفيف لهم وللأمة من بعدهم، وهذا في مواضع كثيرة في محكم التنزيل، ليس هنا محل حصرها

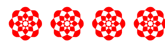
---

(١) مسند ابن الجعد (ص:٣٤٤) برقم (٢٣٦٨).

ولا ذكرها، لكن المراد أن للصحابة ﷺ فضلًا عظيمًا جليلَ القدر على من جاء بعدهم من هذه الأمة، ولو لم يكن لهم من الفضل إلا هذا الموقف الذي خفَّف الله ﷻ به على أمة محمد ﷺ لكفى، فكيف وقد كانت لهم فضائل كثيرة في هذا الباب، **وقد أشرت إلى بعض منها في كتابي: (ثناء المولى سبحانه على أصحاب نبيه ﷺ)**.

وهذا يؤكد ما ذكره الله ﷻ في محكم التنزيل بشأن الصحابة وثناء من جاء بعدهم عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾[الحشر: ١٠].

وقد أمر الله ﷻ بالثناء عليهم والدعاء لهم ﷺ؛ لأن لهم علينا من المعروف والفضل ما لا يعلمه إلا الله تعالى، ولهم على الأمة الذين جاءوا من بعدهم من الفضائل والحسنات والمنن ما لا يعلمه إلا الله تعالى؛ فقد حفظوا كلام الله تعالى وبلَّغوه، وحفظوا سنة الرسول ﷺ وأدَّوها كما سمعوا، ووصفوه ﷺ حق الوصف ونقلوا كل أفعاله ومواقفه للناس، وجاهدوا معه وجاهدوا بعده حق الجهاد، وبذلوا نفوسهم وأموالهم في سبيل الله، وضربوا أعلى الأمثلة في التضحية والإخلاص والصبر في مجال تبليغ هذا الدين وتأسيس دولة الإسلام، وحاربوا الكفر والشرك في جزيرة العرب وما وليَها من الديار؛ حتى يستطيع الناس اختيار طريق الحق بدون خوف من أحد، فلهم منَّا الدعاء والثناء والحب، فاللهم أجزل لهم الأجر والثواب، واجمعنا بهم في جناتك جنات النعيم، يا أرحم الراحمين!





المطلب الثاني
مواقف من حياة السلف في السمع والطاعة للوحي

إن الإيمان تصديق يقيني جازم بما جاء عن الله ﷻ ورسوله ﷺ.

والإيمان كما قرره علماء السلف: اعتقاد بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان.

قال ابن عبد البر ؒ: (أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان؛ إلا ما ذُكِر عن أبي حنيفة وأصحابه فإنهم ذهبوا إلى أن الطاعات لا تسمى إيمانًا...)[١].

ثم قال ؒ: (وأما سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر، منهم مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان الثوري والأوزاعي والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام وداود بن علي وأبو جعفر الطبري، ومن سلك سبيلهم فقالوا: الإيمان قول وعمل، قول باللسان، وهو الإقرار، اعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح...، والإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي)[٢].

وقال أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل يقول: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، البِرُّ كله من الإيمان، والمعاصي تنقص من الإيمان)[٣].

وقال الأوزاعي ؒ: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص فمن زعم أن الإيمان يزيد ولا ينقص فاحذروه، فإنه مبتدع)[٤].

---

(١) التمهيد لابن عبد البر (٩/ ٢٣٨).

(٢) المصدر السابق (٩/ ٢٤٣).

(٣) مقدمة المحقق أحمد شاكر على مسند الإمام أحمد (١/ ٨٤).

(٤) الشريعة للآجري (٢/ ٦٠٧).

ولقد كان إيمان الرسول ﷺ أعظم الإيمان ثم إيمان أتباعه، ولهذا شهد الله به في هذه الخواتيم، فقال سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ...﴾[البقرة:٢٨٥].

قال الزجاج رحمه الله: (ختمها بهذا تعظيمًا لنبيه ﷺ وأتباعه، وتأكيدًا وفذلكة لجميع المذكور من قبل، وقد شهد ﷻ هنا لمن تقدم في صدر السورة بكمال الإيمان وحسن الطاعة واتصافهم بالفعل...، وإيراده ﷺ بعنوان الرسالة دون تعرض لاسمه الشريف تعظيم له وتمهيد لما يذكر بعده)(١).

لقد عرف الصحابة رضي الله عنهم وشاهدوا مواقف من حياة النبي ﷺ تجسَّد فيها يقينه وإيمانه وثقته بربه ﷻ، فتربوا في مدرسة محمد ﷺ أعظم تربية، وكانوا على قدْرٍ عظيم من الإيمان، ووصل بعضهم إلى مرتبة الصدِّيقيَّة، وهي أعلى المراتب بعد مرتبة النبوة، ومن أولئك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، الذي حمل هذا اللقب وصار علمًا عليه؛ لما وقر في قلبه من اليقين والإيمان الذي كان باعثًا له على الانقياد للحق والسمع والطاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ، ولهذا لما قال له المشركون: «هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي أبو بكر الصديق»(٢).

---

(١) روح المعاني للآلوسي (٢/ ٦٤).

(٢) المستدرك على الصحيحين (٣/ ٦٥) برقم: (٤٤٠٧) عن عائشة رضي الله عنها، وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

أولًا: مواقف من حياة الصحابة ﷺ في السمع والطاعة للوحي:

إن حياة الصحابة وتاريخهم مليء بالقصص والأخبار الرائعة في التصديق اليقيني بآيات القرآن ودلالاتها، وقد أخذ الصحابة من فم رسول الله ﷺ، وكان إذا سمع أحدهم من صحابي آخر استوثقه في ذلك، ليس على سبيل التشكيك في نقله، وإنما على سبيل استغراب فواته عنه، وإن الناظر في هذه المواقف ليدرك فعلًا قوة استجابتهم وسبقهم في التنفيذ، من غير معارضة للنص لا بعقل، ولا بذوق، ولا شهوة، ولا شبهة، والتسليم والطاعة لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ.

ذكر الله ﷻ أن في قصص سادات الخلق وهم الرسل عليهم السلام عبرة، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[يوسف:١١١]، وأمر الله ﷻ باتباع هديهم بصفة عامة فيما جرى بينهم وبين أقوامهم؛ فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٩٠].

ومثل هذا يقال: إن ما كان يجري بين النبي ﷺ وبين أصحابه، فيه العظة والعبرة، كأسئلتهم وإجابات النبي ﷺ عنها، والتعقيب على الأحداث والمواقف، كما في سورة الأنفال تعقيبًا على غزوة بدر، وفي سورة آل عمران التعقيب على غزوة أحد، وفي سورة الأحزاب التعقيب على غزوة الأحزاب، وفي سورة التوبة التعقيب على غزوة تبوك وغيرها، وكما في التعقيب على حوادث شخصية للنبي ﷺ في بيوته أو لغيره من الصحابة، كما في سورتي التحريم والأحزاب وحادثة الإفك في سورة النور وغيرها.

وكذلك التعقيب على محاورات اليهود والنصارى للنبي ﷺ في سورة

البقرة وآل عمران وغيرها.

وكذا العبر المأخوذة مما جرى للنبي ﷺ من الوقائع والحوادث، حتى مع بعض الكفار الذين حاولوا قتله، ثم أصبح أحب إليهم من أنفسهم، كشيبة بن عثمان سادن البيت في غزوة حنين[(١)]، بإخباره إياهم بما أضمروه نحوه أو مسح ﷺ على صدورهم ودعا لهم، فأذهب الله عنهم الكفر، وحل الإيمان محله، وقل مثل ذلك عن الشاب الذي قال: ائذن لي بالزنا فحاوره النبي ﷺ وبيَّن له شناعته حتى أبغضه[(٢)].

والمقصود هو أن في هذه الوقائع والحوادث الكثير من العظات والعبر التي ينبغي على طلبة العلم إدراكها لبيان فضل الصحابة ﷺ ومكانتهم، وفيما يلي ذكر بعض هذه النماذج الدالة على شدة السمع والطاعة من الصحابة ﷺ للوحي:

١. عن أبي هريرة ﷺ قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «**لا**»، فقال: «**تكفونا المئونة ونشرككم في الثمرة**»، قالوا: سمعنا وأطعنا»[(٣)]؛ أي: امتثالًا لما أمر به رسول الله ﷺ، ولم يناقشوا أو يعترضوا، وإنما التسليم والاتباع.

٢. عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: أهللنا أصحاب رسول الله ﷺ في الحج

---

(١) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٩١٠).

(٢) مسند أحمد (٣٦/ ٥٤٥) برقم (٢٢٢١١) عن أبي أمامة ﷺ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٧١٢) برقم (٣٧٠).

(٣) صحيح البخاري (٣/ ١٩٠) برقم (٢٧١٩).

خالصًا ليس معه عمرة، فقدم النبي ﷺ صبح رابعة مضت من ذي الحجة، فلما قدمنا أمرنا النبي ﷺ أن نحل، وقال: «**أحلوا وأصيبوا من النساء**»، قال جابر: ولم يعزم عليهم، ولكن أحلهن لهم، فبلغه أنا نقول: لما لم يكن بيننا وبين عرفة إلا خمس، أمرنا أن نحل إلى نسائنا، فنأتي عرفة تقطر مذاكيرنا المذي، فقام رسول الله ﷺ فقال: «**قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبرُّكم، ولولا هديي لحللت كما تحلُّون، فحلُّوا، فلو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت**»، فحللنا وسمعنا وأطعنا(١).

٣. عن جابر ﷺ قال: لما استوى رسول الله ﷺ يوم الجمعة، قال: «**اجلسوا**»، فسمع ذلك ابن مسعود ﷺ، فجلس على باب المسجد، فرآه رسول الله ﷺ، فقال: «**تعال يا عبد الله بن مسعود!**»(٢).

قوله: «فجلس على باب المسجد» مبادرة إلى الامتثال، «فقال: **تعال**» أي: ارتفع عن صف النعال إلى مقام الرجال، وهلم إلى المسجد(٣).

قال ابن الأمير ﷺ: (فيه شدة امتثالهم لرسول الله ﷺ فيما يأمر به على كل حال، ولما دعاه رسول الله ﷺ علَّمه أنه لم يرد إلا أمر من في المسجد)(٤).

٤. عن معقل بن يسار ﷺ، أنه زوَّج أخته رجلًا من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى

---

(١) صحيح البخاري (٩/ ١١٢) برقم (٧٣٦٧)، صحيح مسلم (٢/ ٨٨٣) برقم (١٢١٦).

(٢) سنن أبي داود (١/ ٢٨٦) برقم (١٠٩١)، وصححه الألباني.

(٣) انظر: عون المعبود (٣/ ٣٠٩).

(٤) التحبير لإيضاح معاني التيسير (٥/ ٧٠٣).

انقضت العدة، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخُطَّاب، فقال له: يا لكع! أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبدًا آخر ما عليك، قال: فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾[البقرة:٢٣١] إلى قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[البقرة:٢٣٢]، فلما سمعها معقل قال: «سمعًا لربي وطاعة»، ثم دعاه فقال: «أزوجك وأكرمك»[(١)].

وفي رواية البخاري: أنه قال: «الآن أفعل يا رسول الله»، قال: «فزوجها إياه»[(٢)].

وفي رواية أيضًا: فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾[البقرة:٢٣٢] إلى آخر الآية «فدعاه رسول الله ﷺ فقرأ عليه»، فترك الحمية واستقاد لأمر الله[(٣)].

وعند أبي داود: فقلت: «لا، والله لا أُنْكِحُهَا أبدًا»، قال: ففيَّ نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٢] الآية، قال: «فكفَّرت عن يميني فأنكحتها إياه»[(٤)].

٥. في قصة حادثة الإفك:

امتنع أبو بكر الصديق ﷺ من الإنفاق على مسطح بن أثاثة ﷺ، وكان

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٢١٦) برقم (٢٩٨١) وقال: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني.

(٢) صحيح البخاري (٧/ ١٦) برقم (٥١٣٠).

(٣) صحيح البخاري (٧/ ٥٨) برقم (٥٣٣١).

(٤) سنن أبي داود (٢/ ٢٣٠) برقم (٢٠٨٧) وصححه الألباني.

ينفق عليه لقرابته منه وفقره، فقال: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[النور:٢٢] قال أبو بكر رضي الله عنه: «بلى، والله إني أحب أن يغفر الله لي، فَرَجَعَ إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا»[(١)].

وفي هذا فضل الصِّدِّيق، وسرعة استجابته لأمر الله تعالى.

٦. **قصة كعب بن مالك رضي الله عنه:**

هذه القصة من أجمل القصص وأبلغها، وفيها دروس وعبر عظيمة؛ ومنها سرعة استجابة المجتمع بأسره بالسمع والطاعة للوحي، وإليكم شواهد من القصة:

لما أمر النبي ﷺ بهجرهم وعدم الكلام معهم امتثل الجميع، قال كعب رضي الله عنه: «ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيَّروا لنا حتى تنكَّرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا[(٢)] وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم؛ فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد... حتى إذا طال

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٠١) برقم (٤٧٥٠)، صحيح مسلم (٤/ ٢١٢٩-٢١٣٦) برقم (٢٧٧٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أي: خضعا. فتح الباري لابن حجر (١/ ١٣٣).

عليَّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار[(١)] حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ - فسلمت عليه، فوالله ما رد عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة! أنشدك بالله! هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي»[(٢)].

وفي رواية أحمد ﷬: «فجعلت أخرج إلى السوق، فلا يكلمني أحد، وتنكَّر لنا الناس، حتى ما هم بالذين نعرف، وتنكَّرت لنا الحيطان التي نعرف حتى ما هي الحيطان التي نعرف، وتنكَّرت لنا الأرض حتى ما هي بالأرض التي نعرف»[(٣)].

٧. عن ابن عباس ﭭ قال: «كان البراء بن معرور ﭬ أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ في البيعة له ليلة العقبة في السبعين من الأنصار، فقام البراء بن معرور ﭬ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وجاءنا به، وكان أول من أجاب، وآخر من دعا فأجبنا الله ﷻ وسمعنا وأطعنا، يا معشر الأوس والخزرج! قد أكرمكم الله بدينه، فإن أخذتم السمع والطاعة والمؤازرة بالشكر فأطيعوا الله ورسوله، ثم جلس»[(٤)].

---

(١) أي: علوت سوره. فتح الباري لابن حجر (١/ ١٣٥).

(٢) صحيح البخاري (٦/ ٣-٥) برقم (٤٤١٨)، صحيح مسلم (٤/ ٢١٢٠-٢١٢٦) برقم (٢٧٦٩).

(٣) مسند أحمد (٤٥/ ١٥٣) برقم (٢٧١٧٥) وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٥/ ٢٥٦) برقم (٣٣٥٩).

(٤) المستدرك على الصحيحين (٣/ ١٩٩) برقم (٤٨٣٣) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» وصححه الذهبي ﷬.

٨. عن إبراهيم التيمي عن أبيه، قال: كنا عند حذيفة ﷺ، فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت، فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقُرٌّ[(١)]، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟**»، فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: «**قم يا حذيفة! فأتنا بخبر القوم**»، فلم أجد بُدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: «**اذهب فأتني بخبر القوم، ولا تَذْعَرْهُمْ[(٢)] عليَّ**»، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يُصْلِي ظهره[(٣)] بالنار، فوضعت سهمًا في كبد القوس فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «**ولا تَذْعَرْهُمْ عليَّ**»، ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم، وفرغت قررت[(٤)]، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائمًا حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: «**قم يا نومان!**»[(٥)].

---

(١) القُرّ: بضم القاف هو البرد. انظر: شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٤٥).

(٢) قال النووي ﷺ: «هو بفتح التاء وبالذال المعجمة؛ معناه: لا تفزعهم عليّ ولا تحركهم عليّ، وقيل: معناه لا تنفرهم، وهو قريب من المعنى الأول، والمراد لا تحركهم عليك؛ فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضررًا عليّ؛ لأنك رسولي وصاحبي». شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٤٥).

(٣) أَيْ: يُدْفِئه. النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٥١).

(٤) أي: لما سكنت وجدت مس البرد. النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٨).

(٥) صحيح مسلم (٣/ ١٤١٤) برقم (١٧٨٨).

٩. عن أنس ﷺ: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة ﷺ، وكان خمرهم يومئذ الفضيخ[(١)]، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادي: «**ألا إن الخمر قد حُرِّمت**» قال: فقال لي أبو طلحة ﷺ: اخرج، فأهرقها[(٢)]، فخرجت فهرقتها، فجرت في سكك المدينة، فقال بعض القوم: قد قُتِل قوم وهي في بطونهم، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾[المائدة:٩٣] الآية[(٣)].

وفي رواية: «إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: حُرِّمت الخمر، قالوا: أهرق هذه القلال يا أنس! قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل»[(٤)].

تأملوا في القصة، حيث كانوا في مجلس تدار في كؤوس الخمر، واكتفوا بخبر الثقة، وهذا لكمال فضلهم وتصديقهم، فلم ينتظروا حتى يتأكدوا، ولم يقولوا: هذا خبر واحد، أو هو مجرد احتمال ولم يتأكد الخبر بعد، وغيرها من الأقاويل، وفيه دليل على قبول خبر الواحد.

١٠. عن ابن عمر ﷺ قال: بينما الناس في صلاة الصبح بقباء، إذ جاءهم آت فقال: «إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة، وقد أمر أن يستقبل الكعبة،

---

(١) هو شراب يتخذ من البسر المفضوخ، أي المشدوخ. النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤٥٣).

(٢) بمعنى أرقها. يقال: أراق الماء يريقه، وهراقه يهريقه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٦٠).

(٣) صحيح البخاري (٣/ ١٣٢) برقم (٢٤٦٤)، صحيح مسلم (٣/ ١٥٧٠) برقم (١٩٨٠).

(٤) صحيح البخاري (٦/ ٥٣) برقم (٤٦١٧)، صحيح مسلم (٣/ ١٥٧١) برقم (١٩٨٠).

فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشأم، فاستداروا إلى القبلة»(١).

فيا للعجب! امتثلوا الأمر وهم في الصلاة، فلم ينتظروا وإنما أسرعوا في الامتثال واستداروا، وتحولوا وهم في أثناء الصلاة نفسها بخبر الواحد.

١١. **التأسي بالنبي ﷺ ومتابعته في كل شيء:**

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، قال: «**ما حملكم على إلقاء نعالكم؟**»، قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا، فقال رسول الله ﷺ: «**إن جبريل عليه السلام أتاني فأخبرني أن فيهما قذرًا** -أو قال: **أذى**- وقال: **إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر: فإن رأى في نعليه قذرًا أو أذى فليمسحه وليصل فيهما**»(٢).

١٢. عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ رأى خاتمًا من ذهب في يد رجل، فنزعه فطرحه، وقال: «**يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده**»، فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك انتفع به، قال: لا والله، لا آخذه أبدًا وقد طرحه رسول الله ﷺ!(٣).

قال النووي رحمه الله: (ففيه المبالغة في امتثال أمر رسول الله ﷺ واجتناب نهيه، وعدم الترخص فيه بالتأويلات الضعيفة)(٤).

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ٢٣) برقم (٤٤٩٤)، صحيح مسلم (١/ ٣٧٥) برقم (٥٢٦).

(٢) سنن أبي داود (١/ ١٧٥) برقم (٦٥٠) وصححه الألباني.

(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٦٥٥) برقم (٢٠٩٠).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٦٥).

١٣. عن جرير ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة، عراة، مُجتابي النِّمار أو العباء[١]، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر -بل كلهم من مضر- فتمعر[٢] وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالًا فأذَّن وأقام، فصلى ثم خطب فقال: «﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[النساء:١] إلى آخر الآية، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾[النساء:١] والآية التي في الحشر: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[الحشر:١٨]، **تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره -حتى قال- ولو بشق تمرة**» قال: فجاء رجل من الأنصار بِصُرَّة[٣] كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل، كأنه مُذْهَبَة[٤]، فقال رسول الله ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من**

---

(١) قال النووي ﷺ: «النمار -بكسر النون- جمع نمرة بفتحها، وهي ثياب صوف فيها تنمير، والعباء -بالمد وبفتح العين- جمع عباءة وعباية (لغتان) وقوله: (مجتابي النمار) أي: خرقوها وقوروا وسطها». شرح النووي على مسلم (٧/ ١٠٢).

(٢) بالعين المهملة؛ أي: تغير. شرح النووي على مسلم (٧/ ١٠٢).

(٣) بالضم، أي: ربطة من الدراهم أو الدنانير. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٩٣).

(٤) قال النووي ﷺ: «وهو بالذال المعجمة والباء الموحدة، وهو المعروف في الروايات، وعلى هذا ذكر القاضي وجهين في تفسيره: أحدهما: معناه فضة مذهبة؛ فهو أبلغ في حسن الوجه وإشراقه، والثاني: شبهه في حسنه ونوره بالمذهبة من الجلود -وجمعها مذاهب- وهي شيء كانت العرب تصنعه من جلود، وتجعل فيها خطوطًا مذهبة، يرى بعضها إثر بعض». شرح النووي على مسلم (٧/ ١٠٣).

عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[١].

قال النووي ﵀: (وأما سبب سروره ﷺ ففرحًا بمبادرة المسلمين إلى طاعة الله تعالى وبذل أموالهم لله، وامتثال أمر رسول الله ﷺ، ولدفع حاجة هؤلاء المحتاجين، وشفقة المسلمين بعضهم على بعض وتعاونهم على البر والتقوى)[٢].

١٤. عن المسور بن مخرمة ومروان ﵄ -في قصة صلح الحديبية-: فقال عمر بن الخطاب ﵁: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقًّا؟ قال: «**بلى**»، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**»، قلت: فلِمَ نُعْطِي الدنية في ديننا إذن؟ قال: «**إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري**»، قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟**»، قال: قلت: لا، قال: «**فإنك آتيه ومطوّف به**»، قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر! أليس هذا نبي الله حقًّا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلِمَ نُعْطِي الدنية في ديننا إذن؟ قال: أيها الرجل! إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال:

(١) صحيح مسلم (٢/ ٧٠٤) برقم (١٠١٧).
(٢) شرح النووي على مسلم (٧/ ١٠٣).

بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال الزهري ﷺ: قال عمر ﷺ: فعملت لذلك أعمالًا[(١)].

ينبغي على طلبة العلم والدعاة إدراك أهمية الدعوة بالقدوة؛ فإن النبي ﷺ لما طلب من الصحابة أن يتحللوا، لم يبادر أكثرهم، ولما كرر الطلب، ودخل خباء[(٢)] أم المؤمنين ورأت تغيُّر وجه رسول الله ﷺ، وحدثها بما جرى؛ أدركت ﷺ أن الصحابة يرون رسول الله ﷺ مُحرِمًا، فيقع عندهم الشوق أن العمرة ما زالت محتملة، فلما بدأ رسول الله ﷺ يحلق رأسه تسارع الناس إلى الاقتداء به فحلقوا رءوسهم؛ حتى كادوا أن يقتتلوا[(٣)].

١٥. عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد ﷺ، وكان رجلًا يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها: عناق، وكانت صديقة له، وإنه كان وعد رجلًا من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق فأبصرت سواد ظلي بجنب الحائط؛ فلما انتهت إليَّ عرفت، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحبًا وأهلًا! هلمَّ فبت عندنا الليلة. قال: قلت: يا عناق! حرم الله الزنا، قالت: يا أهل الخيام! هذا الرجل يحمل أسراءكم، قال: فتبعني ثمانية، وسلكت الخندمة فانتهيت إلى كهف أو غار فدخلت، فجاءوا حتى

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٩٣) برقم (٢٧٣١).

(٢) الخباء: أحد بيوت العرب من وبر أو صوف، ولا يكون من شعر. ويكون على عمودين أو ثلاثة. النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٩).

(٣) صحيح البخاري (٣/ ١٩٣) برقم (٢٧٣١) عن المسور بن مخرمة، ومروان ﷺ.

قاموا على رأسي فبالوا؛ فظل بولهم على رأسي وعماهم الله عني، قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلًا ثقيلًا حتى انتهيت إلى الإذخر، ففككت عنه أكبله[١]، فجعلت أحمله ويعييني حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! أنكح عناقًا؟ فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد عليَّ شيئًا حتى نزلت: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[النور:٣]، فقال رسول الله ﷺ: «**يا مرثد! الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، فلا تنكحها**»[٢].

١٦. عن أبي السفر أن أبا بكر ﷺ أشرف من كنيف أو رفيف[٣]، وأسماء بنت عميس ﷺ هي ممسكته وهي موشومة اليدين[٤]: أترضون بمن استخلف عليكم؟ فوالله ما ألوت[٥] ولا تلوت، ولا ألوت عن جهد رأي، ولا ولَّيت ذا قرابة، استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا،

(١) جمع قلة لِلْكَبْل وهو: القيد. النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٤٤).

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٣٢٨-٣٢٩) برقم (٣١٧٧)، وسنن النسائي (٦/ ٦٦) برقم (٣٢٢٨) بلفظ: «يا عناق! إن رسول الله ﷺ حرم الزنا» وحسن الألباني إسناده.

(٣) الكنيف: الموضع الساتر. ويطلق عادة على مواطن قضاء الحاجة. انظر: لسان العرب (١/ ٤٤٨). والرفيف السقف. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٢٤٥).

(٤) الوشم: غرز إبرة ونحوها في ظهر الكف أو المعصم أو الشفة وغير ذلك من بدن المرأة حتى يسيل الدم منه، ثم يحشى ذلك الموضع بكحل أو نورة أو نيل. التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢٣/ ٣٦٩). قال ابن حجر ﷺ: «قال الطبري كأنها كانت صنعته قبل النهي فاستمر في يدها» فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٣٧٦).

(٥) ألَوت أي: قصَّرت. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٦٣).

قالوا: سمعنا وأطعنا[١].

١٧. عن رافع بن خديج ﷺ، قال: «كنا نحاقل الأرض على عهد رسول الله ﷺ، فنكريها بالثلث والربع، والطعام المسمى، فجاءنا ذات يوم رجل من عمومتي، فقال: نهانا رسول الله ﷺ عن أمر كان لنا نافعًا، وطواعية الله ورسوله أنفع لنا»[٢].

١٨. عن ابن عباس ﷺ، قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحُرِّ بن قيس -وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ﷺ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولًا كانوا أو شبانًا- فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي! هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذِن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس ﷺ: «فاستأذن الحُرَّ لعيينة فأذن له عمر»، فلما دخل عليه قال: هِيْ يا ابن الخطاب! فوالله ما تعطينا الجزل[٣] ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به، فقال له الحُرُّ: يا أمير المؤمنين! إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾[الأعراف:١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين، «والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله»[٤].

---

(١) السنة للخلال (١/ ٢٧٦) برقم (٣٣٨).

(٢) صحيح مسلم (٣/ ١١٨١) برقم (١٥٤٨).

(٣) بفتح الجيم وسكون الزاي بعدها لام؛ أي: الكثير. فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٢٥٩).

(٤) صحيح البخاري (٦/ ٦٠) برقم (٤٦٤٢).

ثانيًا: مواقف من حياة الصحابيات في السمع والطاعة للوحي:

والصحابيات كان لهن مواقف أيضًا في السمع والطاعة، ومن ذلك:

١. عن أم سلمة ﵂ قالت: «لما نزلت: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩]، خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان[١] من الأكسية»[٢].

٢. عن عائشة ﵂ قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[النور:٣١]، شققن مروطَهن[٣] فاختمرن بها»[٤].

٣. عن صفية بنت شيبة ﵂ قالت: بينما نحن عند عائشة ﵂ قالت: وذكرت نساء قريش وفضلهن، فقالت عائشة: «إن لنساء قريش لفضلًا، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقًا بكتاب الله، ولا إيمانًا بالتنزيل؛ لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[النور:٣١] انقلب رجالهن إليهن، يتلون عليهن ما أنزل إليهن فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابته، ما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها الـمُرَحَّل[٥] فاعتجرت به تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله من

---

(١) جمع غراب. عون المعبود (١١/ ١٠٧).
(٢) سنن أبي داود (٤/ ٦١) برقم (٤١٠١) وصححه الألباني.
(٣) جمع مِرط -بكسر الميم- وهو الإزار. عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٩/ ٩٢).
(٤) صحيح البخاري (٦/ ١٠٩) برقم (٤٧٥٨).
(٥) المرحَّل بالراء والحاء المهملة: الموشَّى؛ سمِّي مرحَّلًا لأن عليه تصاوير الرحال. المعلم بفوائد مسلم (٣/ ١٣٢).

كتابه، فأصبحن يصلين وراء رسول الله ﷺ الصبح مُعْتَجِرات[(١)] كأن على رءوسهن الغربان»[(٢)].

٤. عن معاذة قالت: سألت عائشة ﵂ فقلت: ما بال الحائض تقضي الصوم، ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: أحرورية أنت؟ قلت: لست بحرورية، ولكني أسأل. قالت: «كان يصيبنا ذلك، فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة»[(٣)]، والمعنى أنهن بادرن بالسمع والطاعة لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ من غير سؤال عن سبب ذلك أو عن الحكمة منه.

٥. عن أنس ﵁ قال: خطب النبي ﷺ على جليبيب امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى أستأمر أمها، فقال النبي ﷺ: «**فنعم إذن**» قال: فانطلق الرجل إلى امرأته فذكر ذلك لها، فقالت: لاها الله إذن! ما وجد رسول الله ﷺ إلا جليبيبًا، وقد منعناها من فلان وفلان؟ قال: والجارية في سترها تستمع. قال: فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي ﷺ بذلك، فقالت الجارية: أتريدون أن تردُّوا على رسول الله ﷺ أمره؟ إن كان قد

---

(١) المِعْجَر والعِجارُ: ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها ثم تجلبب فوقه بجلبابها، والجمع المَعاجِرُ؛ ومنه أُخذ الاعتجار، وهو لَيُّ الثوب على الرأس من غير إدارة تحت الحنك. والمِعْجَر: ثوب تَعْتَجِر به المرأة أصغر من الرداء وأكبر من المِقْنَعة. انظر: لسان العرب (٤/ ٥٤٤).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٧٥) برقم (١٤٤٠٦). قال الألباني: «رواه ابن أبي حاتم ضعيف بهذا السياق والتمام، وقد صح بعضه عند البخاري كما تقدم ولبعضه شاهد عن أم سلمة قالت: «لما نزلت: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[الأحزاب:٥٩] خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من الأكسية» أخرجه أبو داود بسند صحيح. غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام (ص:٢٨٢).

(٣) صحيح مسلم (١/ ٢٦٥) برقم (٣٣٥).

رضيه لكم، فأنكِحوه. قال: فكأنها جلَّت عن أبويها، وقالا: صدقتِ، فذهب أبوها إلى النبي ﷺ فقال: إن كنتَ قد رضيته فقد رضيناه. قال: «**فإني قد رضيته**» فزوجها، ثم فزع أهل المدينة، فركب جليبيب فوجدوه قد قُتِل، وحوله ناس من المشركين قد قَتَلهم، قال أنس ﷺ: «فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق ثيب في المدينة»[(١)].

وحدَّث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتًا قال: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ؟ قال: «**اللهم صبَّ عليها الخير صبًا، ولا تجعل عيشها كدًّا كدًّا**» قال: فما كان في الأنصار أيِّم أنفق منها[(٢)].

٦. عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ فذكرت له امرأة أخطبها، فقال: «**اذهب فانظر إليها، فإنه أجدر أن يؤدم بينكما**[(٣)]»، فأتيت امرأة من الأنصار، فخطبتها إلى أبويها، وأخبرتهما بقول النبي ﷺ، فكأنهما كرها ذلك، قال: فسمعت ذلك المرأةُ، وهي في خِدْرِهَا[(٤)]، فقالت: إن كان

(١) مسند أحمد (١٩/ ٣٨٥) برقم (١٢٣٩٣)، وصححه ابن حبان. صحيح ابن حبان (٩/ ٣٦٥-٣٦٦) برقم (٤٠٥٩)، ومعنى أنها لمن أنفق ثيب في المدينة: أنها كانت أعظم امرأة أيّم في بيوت المدينة، يتسابق إليها الخُطّاب بعد موت جليبيب، وذلك ببركة كونها رضيت بنكاح جليبيب الذي كان ينفر منه الناس، وببركة دعاء النبي ﷺ لها. انظر: الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (١٦/ ١٤٨).

(٢) مسند أحمد (٣٣/ ٢٨-٣٠) برقم (١٩٧٨٤) وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٦/ ١٧٥) برقم (٤٠٢٤).

(٣) الأدم والإيدام: الإصلاح والتوفيق. شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٧/ ٢٢٧١).

(٤) الخِدر: ستر يجعل للجارية في ناحية البيت. إكمال المعلم بفوائد مسلم (٧/ ٢٨٤).

رسول الله ﷺ أمرك أن تنظر فانظر، وإلا فأنشدك، كأنها أعظمت ذلك، قال: فنظرت إليها فتزوجتها، فذكر من موافقتها[(١)].

٧. عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها، أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة، وهو غائب، فأرسل إليها وكيله بشعير فسخطته، فقال: والله ما لكِ علينا من شيء، فجاءت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: «**ليس لك عليه نفقة**»، فأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: «**تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك، فإذا حللت فآذنيني**»، قالت: فلما حللتُ ذكرتُ له أن معاوية بن أبي سفيان، وأبا جهم خطباني، فقال رسول الله ﷺ: «**أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحي أسامة بن زيد**» فكرهته، ثم قال: «**انكحي أسامة**»، فنكحته، فجعل الله فيه خيرًا، واغتبطت به[(٢)].

٨. عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد أقبلت امرأة تسعى، حتى إذا كادت أن تشرف على القتلى، قال: فكره النبي ﷺ أن تراهم. فقال: «**المرأة! المرأة!**». قال الزبير رضي الله عنه: فتوسمت أنها أمي صفية، قال: فخرجت أسعى إليها، فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى، قال: فلدمت[(٣)]

---

(١) سنن ابن ماجه (١/ ٦٠٠) برقم (١٨٦٦)، وصححه الألباني.

(٢) صحيح مسلم (٢/ ١١١٤) برقم (١٤٨٠). و«اغتبطت» هو بفتح التاء والباء، والغبطة أن يتمنى مثل حال المغبوط من غير إرادة زوالها عنه، وليس هو بحسد، وأرادت بقولها حسن الحال والمسرة. انظر: شرح النووي على مسلم (١٠/ ٩٨)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ٢١٧٧).

(٣) أي: ضربت ودفعت. النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢٤٦).

في صدري، وكانت امرأة جَلْدَة[١]، قالت: إليك لا أرض لك، قال: فقلت: إن رسول الله ﷺ عزم عليك. قال: فوقفت، وأخرجت ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة، فقد بلغني مقتله فكفنوه فيهما...»[٢].

ثالثًا: خوف الصحابة من مخالفة أمر الرسول ﷺ وموقفهم ممن اعترض عليه:

١. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «تمتع النبي ﷺ»، فقال عروة بن الزبير: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة. فقال ابن عباس: ما يقول عُرَيَّة؟ قال: يقول: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة. فقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراهم سيهلكون أقول: قال النبي ﷺ، ويقول: نهى أبو بكر وعمر»[٣].

كان حديث عروة بن الزبير رحمه الله عن نهي خليفتين أمر النبي ﷺ بالتأسي والاقتداء بهما، ومع ذلك أنكر عليه ابن عباس رضي الله عنهما؛ تقديمًا للسمع والطاعة للنبي ﷺ، فكيف بمن يدعو للتأسي بمن هو دونهما، أو بمن هو أبعد من ذلك، كالمنافقين والكفار ونحوهم؟!

٢. عن ابن بريدة قال: رأى عبد الله بن المغفل رضي الله عنه رجلًا من أصحابه يخذف، فقال له: «لا تخذف؛ فإن رسول الله ﷺ كان يكره -أو قال-

---

(١) الجَلَد: القوة والصبر، والمعنى أنها قوية صبورة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٨٤).

(٢) مسند أحمد (٣/ ٣٤) برقم (١٤١٨) وحسّن إسناده الألباني في أحكام الجنائز (١/ ٦٢).

(٣) مسند أحمد (٥/ ٢٢٨) برقم (٣١٢١).

ينهى عن الخذف، فإنه لا يصطاد به الصيد، ولا ينكأ به العدو[(١)]، ولكنه يكسر السن، ويفقأ العين»، ثم رآه بعد ذلك يخذف، فقال له: «أخبرك أن رسول الله ﷺ كان يكره أو ينهى عن الخذف ثم أراك تخذف، لا أكلمك كلمةً كذا وكذا»[(٢)].

٣. عن أبي قتادة قال: كنا عند عمران بن حصين رضي الله عنه في رهط، وفينا بشير بن كعب، فحدثنا عمران يومئذ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحياء خير كله**»، قال: أو قال: «**الحياء كله خير**»، فقال بشير بن كعب: إنا لنجد في بعض الكتب -أو الحكمة- أن منه سكينة ووقارًا لله، ومنه ضعف، قال: فغضب عمران حتى احمرتا عيناه، وقال: ألا أرى أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتعارض فيه، قال: فأعاد عمران الحديث، قال: فأعاد بشير، فغضب عمران، قال: فما زلنا نقول فيه: إنه منا يا أبا نجيد! إنه لا بأس به[(٣)].

٤. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنَّكم إليها**»، قال: فقال ابنه بلال: والله لنمنعهن! قال: فأقبل عليه عبد الله؛ فسبَّه سبًّا سيئًا ما سمعته سبَّه مثله قط وقال: «أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول: والله لنمنعهن»[(٤)].

٥. عن إسحاق بن قبيصة عن أبيه أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه خرج مع رجل

---

(١) قال ابن حجر رحمه الله: «قوله: «ينكأ العدو» كذا الرواية بفتح الكاف والهمز، وهي لغة، والأشهر في هذا يُنكَى، والمراد المبالغة في الأذى». فتح الباري لابن حجر (١/ ١٩٨).

(٢) صحيح مسلم (٣/ ١٥٤٧) برقم (١٩٥٤).

(٣) صحيح مسلم (١/ ٦٤) برقم (٣٧).

(٤) صحيح مسلم (١/ ٣٢٧) برقم (٤٤٢).

أرض الروم، فنظر إلى الناس، وهم يتبايعون كسرة الذهب بالدنانير، وكسرة الفضة بالدراهم، فقال: يا أيها الناس! إنكم تأكلون الربا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تبايعوا الذهب إلا مثلًا بمثل لا زيادة بينهما، ولا نَظِرَة**»[(١)]، فقال رجل: لا أرى الربا يكون في هذا إلا ما كان من نَظِرَة، فقال عبادة ﷺ: أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتحدثني عن رأيك لئن أخرجني الله لا أساكنك بأرض لك عليَّ فيها إمرة، فلما قفل لحق بالمدينة، فقال له عمر: ما أقدمك يا أبا الوليد! فقص عليه القصة، فقال: ارجع إلى أرضك وبلدك، ولا إمرة له عليك، فقبَّح الله أرضًا لست فيها وأمثالك[(٢)].

إن إظهار تعظيم سنة النبي ﷺ، والأدب في عرض الإشكالات الواردة في فقه النص بعد قبوله سمعًا وطاعة، هو منهج سلفي قويم.

قال ابن القيم ؒ: (وإنما أنكر عليه عبادة مقابلته لما رواه بهذا الرأي، ولو قال له: نعم حديث رسول الله على الرأس والعين ولا يجوز مخالفته بوجه، ولكن هذه الصورة لا تدخل في لفظه فإنه إنما قال: «**الفضة بالفضة مثلًا بمثل، وزنًا بوزن**» وهذه الزيادة ليست في مقابلة الفضة، وإنما هي في مقابلة الصنعة، ولا تذهب الصنعة هدرًا - لما أنكر عليه عبادة؛ فإن هذا من تمام فهم النصوص وبيان ما أريد بها)[(٣)].

---

(١) النَّظِرَة: تأجيل الثمن أو تأجيل قبض الذهب، انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/ ١٢).
(٢) الإبانة لابن بطة (١/ ٢٥٦-٢٥٧) برقم (٩٣).
(٣) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٦١).

رابعًا: قصص السلف من غير الصحابة في السمع والطاعة والتصديق للوحيين:

فهم السلف الصالح ضابط السمع والطاعة للكتاب والسنة، والتسليم والانقياد لهما، مع الخضوع والتعظيم، وقد قالوا هم كما قال نبينا ﷺ والرسل عليهم السلام من قبله والصحابة رضي الله عنهم، قالوا جميعًا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[البقرة: ٢٨٥]، ثم طلبوا تزكية النفوس، وخشيته ﷻ في السر والعلن، فقالوا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾[البقرة: ٢٨٥].

والله ﷻ قد أثبت رضاه عمن اتبع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[التوبة:١٠٠]، فنحن مطالبون بالاقتداء بهم في السير على هذا المنهج القويم.

ومما ورد من قصص السلف من بعد الصحابة في ذلك:

١ . قال أبو إسحاق الحبَّال: كنا يومًا نقرأ على شيخ جزءًا فقرأنا قوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتَّات**»[(١)]، وكان في الجماعة رجل يبيع القتِّ -وهو علف الدواب- فقام وبكى، وقال: أتوب إلى الله؛ فقيل له: ليس هو ذاك؛ لكنه النَّمام الذي ينقل الحديث من قوم إلى قوم؛ فسكن وطابت نفسه[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري (٨/ ١٧) برقم (٦٠٥٦)، صحيح مسلم (١/ ١٠١) برقم (١٠٥) عن حذيفة رضي الله عنه.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي (٣/ ٢٥٤).

٢. قال محمد بن أحمد البلخي المؤذن: كنت مع الشيخ أبي محمد بن أبي شريح في طريق غور[(١)]، فأتاه إنسان في بعض تلك الجبال، فقال: إن امرأتي ولدت لستة أشهر. فقال: هو ولدك، قال رسول الله ﷺ: «**الولد للفراش**»[(٢)]. فعاوده، فردَّ عليه كذلك. فقال الرجل: أنا لا أقول بهذا، فقال: هذا الغزو، وسلَّ عليه السيف، فأكببنا عليه وقلنا: جاهل لا يدري ما يقول.

قال الذهبي ﵀: (كان سبيله أن يوضح له ويقول: لك أن تنتفي منه باللعان، ولكنه احتمى للسنة وغضب لها)[(٣)].

٣. ومن ذلك قصة هارون الرشيد أنه استدعى إليه أبا معاوية الضرير محمد بن خازم ليسمع منه الحديث، قال أبو معاوية: ما ذكرت عنده في حديث رسول الله إلا قال: صلى الله وسلم على سيدي، وإذا سمع حديثًا فيه موعظة يبكي حتى يبلَّ الثرى، وأكلت عنده يومًا ثم قمت لأغسل يدي فصب الماء عليَّ، وأنا لا أراه، ثم قال: يا أبا معاوية! أتدري من يصب عليك؟ قلت: لا. قال: أنا. فدعا له أبو معاوية الضرير، فقال: إنما أردت تعظيم العلم، وقد حدَّثه أبو معاوية يومًا عن الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة بحديث: «**احتج آدم وموسى**» فقال عم الرشيد: أين التقيا يا أبا معاوية؟ فغضب الرشيد من ذلك غضبًا شديدًا، وقال: أتعترض على

---

(١) هو الطريق المنخفض من الأرض. انظر: القاموس المحيط (ص:٤٥٢)، مجمع بحار الأنوار (٤/ ٧٤).

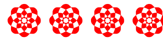
(٢) صحيح البخاري (٣/ ٥٤) برقم (٢٠٥٣)، صحيح مسلم (٢/ ١٠٨٠) برقم (١٤٥٧) عن عائشة ﵂.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٢٧، ٥٢٨).

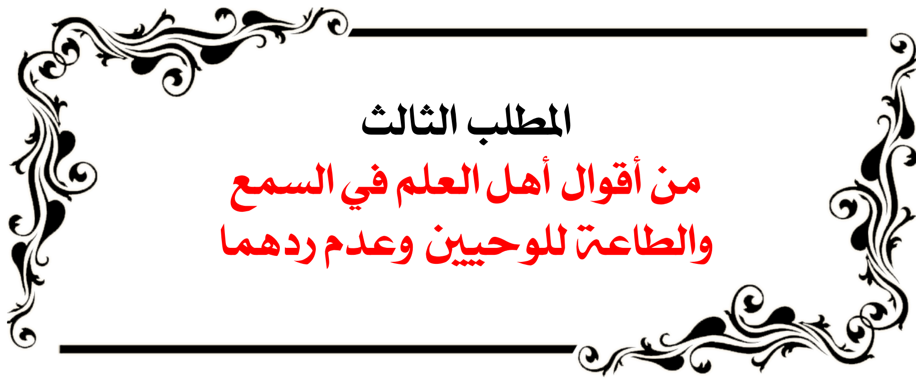
الحديث؟! عليَّ بالنطع[(١)]، والسيف. فأحضر ذلك، فقام الناس إليه يشفعون فيه، فقال الرشيد: هذه زندقة، ثم أمر بسجنه، وقال: لا يخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا، فأقسم بالأيمان المغلظة ما قال له أحد، وإنما كانت بادرة مني، فأطلقه[(٢)].

٤. عن أبي الحسين الطبسي قال: سمعت أبا سعيد الإصطخري يقول، وجاءه رجل فقال له: أيجوز الاستنجاء بالعظم؟ قال: لا، قال: لِمَ؟ قال: لأن رسول الله ﷺ قال: «**هو زاد إخوانكم من الجن**»، قال: فقال له: الإنس أفضل أم الجن؟ قال: بل الإنس، قال: فلِمَ يجوز الاستنجاء بالماء وهو زاد الإنس؟ قال: فعدا عليه وأخذ بحلقه وهو يقول: يا زنديق! تعارض رسول الله ﷺ، وجعل يخنقه، فلولا أني أدركته لقتله[(٣)].

٥. قال أبو السائب: كنا عند وكيع فقال لرجل ممن عنده ممن ينظر في الرأي: «أَشْعَرَ رسول الله ﷺ» -يعني هديه- ويقول أبو حنيفة: هو مثلة؟! قال الرجل: فإنه قد روي عن إبراهيم النخعي أنه قال: الإشعار مثلة. قال: فرأيت وكيعًا غضب غضبًا شديدًا، فقال: «أقول لك: قال رسول الله ﷺ وتقول: قال إبراهيم! ما أحقك بأن تحبس، ثم لا تخرج حتى تنزع عن قولك هذا»[(٤)].



(١) النَّطْعُ: بالكسر وبالفتح وبالتحريك، وكعِنَبٍ: بساطٌ من الأديمِ. القاموس المحيط (ص:٧٦٧).
(٢) البداية والنهاية (١٤/ ٣١، ٣٢).
(٣) موسوعة أقوال السلف في العقيدة (٥/ ١٢٤).
(٤) الفقيه والمتفقه للبغدادي (١/ ٣٨٥، ٣٨٦).



المطلب الثالث

من أقوال أهل العلم في السمع والطاعة للوحيين وعدم ردهما

تظافرت أقوال أهل العلم في إبراز القبول والامتثال والسمع والطاعة للوحيين، وهذه بعض النقولات الواردة في ذلك:

١. قال الزهري ﵀: (مِنَ الله الرسالة، وعلى رسول الله ﷺ البلاغ، وعلينا التسليم)[١].

٢. قال سفيان ﵀: (قال رجل للزهري: يا أبا بكر! حديث رسول الله ﷺ: «**ليس منا من لطم الخدود**»[٢]، و«**ليس منا من لم يوقِّر كبيرنا**»[٣]، وما أشبه من الحديث؟ قال سفيان: فأطرق الزهري ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: مِنَ الله ﷻ العلم، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم)[٤].

٣. قال الإمام أبو حنيفة ﵀: (إذا صح عندنا عن النبي ﷺ شيء لزمنا الأخذ به، فإن لم نجد عنه ووجدنا عن الصحابة ﵃ فكذلك، فإذا جاء قول التابعين زاحمناهم)[٥].

٤. وقال ابن المبارك ﵀: سمعت أبا حنيفة ﵀ يقول: (إذا جاء عن النبي ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن أصحاب النبي ﷺ نختار من قولهم، وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم)[٦]. ومراده ﵀ النظر في أقوالهم

---

(١) صحيح البخاري (٩/ ١٥٤) معلقًا.

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٨١) برقم (١٢٩٤) عن ابن مسعود ﵁.

(٣) الحديث بهذا اللفظ في مسند أحمد (١١/ ٥٢٩) برقم (٦٩٣٧)، وهو في سنن الترمذي (٤/ ٣٢٢) برقم (١٩٢٠)، سنن أبي داود (٤/ ٢٨٦) برقم (٤٩٤٣) بلفظ قريب منه، عن عبد الله بن عمرو ﵄، وصححه الألباني.

(٤) السنة للخلال (٣/ ٥٧٩) برقم (١٠٠١).

(٥) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٣٠).

(٦) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص:١١١).

والاختيار منها دون خروجه عنها.

٥. جاء عن الإمام مالك بن أنس ﷺ أن رجلًا جاءه فقال: «من أين أحرم؟»، قال: «من حيث أحرم رسول ﷺ»، قال: «فإن زدت على ذلك»، قال: «فلا تفعل؛ فإني أخاف عليك الفتنة»، قال: «وما في هذه من الفتنة؟! إنما هي أميال أزيدها»، قال: «فإن الله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النور:٦٣]، وأي فتنة أعظم من أن ترى أن اختيارك لنفسك خير من اختيار الله ورسوله»[(١)].

٦. قال أبو يوسف صاحب أبي حنيفة ﷺ: (إذا جاءكم عن رسول الله ﷺ فخذوا به، ثم ما جاءكم عن الصحابة ﷺ فخذوا به، ودعوا أقاويلنا)[(٢)].

٧. قال الإمام الشافعي ﷺ: (آمنت بالله وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله)[(٣)].
ومقصوده ﷺ الإيمان والتسليم بما جاء عن الله وعن رسول الله من غير زيادة ولا نقص ولا تأويل ولا تحريف، بخلاف المبتدعة وأهل الأهواء الذين حرفوا وبدلوا وزادوا ونقصوا.

٨. وقال أيضًا: (أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ؛

---

(١) الباعث في إنكار البدع (٢٢).

(٢) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٣٠).

(٣) لمعة الاعتقاد (ص:٧).

لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس)[١].

٩. قال الإمام أحمد ﷺ: (من رد حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة)[٢].

١٠. وقال أبو داود: قلت لأحمد: أليس الأوزاعي هو أتبع من مالك؟ قال: (لا تقلد دينك أحدًا من هؤلاء، ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به، ثم التابعين بعد الرجل فيه مخيَّر)[٣].

١١. قال البخاري ﷺ: (وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره، اقتداءً بالنبي ﷺ)[٤].

١٢. قال الطحاوي ﷺ: (ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام).

قال ابن أبي العز ﷺ شارح الطحاوية: (أي: لا يثبت إسلام من لم يسلِّم لنصوص الوحيين وينقاد إليها، ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه)[٥].

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١١).

(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص:٢٤٩).

(٣) مسائل الإمام أحمد رواية أبي داود (ص:٣٦٩).

(٤) صحيح البخاري (٩/ ١١٣).

(٥) شرح الطحاوية (ص:١٦٨)، والعقيدة الطحاوية هي للإمام العلامة أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي الأزدي المتوفي سنة (٣٢١هـ) ﷺ، ذكر فيها اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة: أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وما يعتقدون في أصول الدين

١٣. قال البربهاري رحمه الله: (وإذا سمعت الرجل يطعن على الآثار، أو يرد الآثار، أو يريد غير الآثار، فاتهمه على الإسلام، ولا تشك أنه صاحب هوى مبتدع)[(١)].

١٤. قال ابن تيمية رحمه الله: (وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة؛ فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه، ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده؛ فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم)[(٢)].

١٥. قال ابن القيم رحمه الله: (قد كان السلف يشتد عليهم معارضة النصوص بآراء الرجال ولا يقرُّون المعارض على ذلك، وكان عبد الله بن عباس يحتج في مسألة متعة الحج بسنة رسول الله وأمره لأصحابه بها؛ فيقولون له: إن أبا بكر وعمر أفردا الحج ولم يتمتعا، فلما أكثروا عليه قال: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول لكم: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؛ فرحم الله ابن عباس، كيف لو رأى أقوامًا يعارضون قول الله ورسوله بقول أرسطو، وأفلاطون، وابن سينا، والفارابي،

ويدينون به رب العالمين، بأسلوب سهل ميسر يغلب السجع على بعض جملها، وقد انتقد عليه فيها مواضع قليلة تعرف من مراجعة شرح العلامة صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي -أحد تلامذة الحافظ ابن كثير- المتوفي سنة (٧٩٢هـ) رحمه الله، واسمه (شرح العقيدة الطحاوية).

(١) شرح السنة (ص:١١٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨).

وجهم بن صفوان، وبشر المريسي، وأبي الهذيل العلَّاف، وأضرابهم)[(١)].

١٦. وقال أيضًا: (فكانت نصوص رسول الله أجلَّ في صدورهم وأعظم في قلوبهم من أن يعارضوها بقول أحد من الناس كائنًا من كان، ولا يثبت قدم الإيمان إلا على ذلك، وفتحُ باب هذه المعارضة الباطلة سدٌّ لباب الإيمان، والله المستعان)[(٢)].

والنصوص كثيرة في هذا الباب من كلام الأئمة الأعلام، وفيما سبق بركة.

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٦٢، ١٠٦٣).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٦٥).

مناقشة مقولة "طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم":

قبل أن أختم هذا الكتاب الذي بيَّنت فيه طريق السلف الصالح وضابط منهج أهل السنة والجماعة، وهو نص الآيات: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾[البقرة:٢٨٥-٢٨٦]. وهو طريق العلم والحكمة والسلامة؛ لأنه جاء عن العليم الحكيم، فهو الذي اختاره ورسمه للعباد، ينبغي الإشارة إلى مقولة اشتهرت عند المتكلمة وروَّج لها بعض شراح الأحاديث وغيرهم، وهي القول بأن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم.

إن هذه المقالة تتحدث عن منهج السلف والخلف في معاني الأسماء والصفات، وأن منهج السلف التفويض، ولم يكن هذا منهجهم، فنسبة التفويض إلى السلف غير صحيح، وفيها أن طريقة الخلف هي الأعلم والأحكم، وهذا قدح واضح في منهج السلف، وفرية بلا برهان.

إن أول من أحدث هذه المقالة هم المتكلمون وأهل المنطق، وروَّج لها الكثير من أهل الباطل والزَّيغ، وانخدع بها بعض الناس أو لم يفهموها على

حقيقتها، وظنوا أن في هذه المقالة إشادة بمنهج السلف، والحقيقة أن المتأمل فيها يجد أن الإساءة فيها للسلف بينة واضحة، واللمز فيها لمنهجهم ظاهر، فهي مقولة متناقضة، يناقض أولُها آخرَها، فكيف يكون طريق السلف أسلم، ولا يكون أعلم وأحكم، والأصل أن يكون الأسلم هو الأعلم والأحكم؛ فضد العلم الجهل، والجاهل لا يسلم، وضد الحكمة السفه والطيش، وأنَّى للسفيه أن يكون سالمًا؟!

إن مفهوم هذه المقالة هو الطعن في منهج السلف، وأنه ينقصه العلم والحكمة، وهو في المقابل مدح لأهل علم الكلام والمنطق والفلسفة، الذي لا ينبغي أن يوصف منهجهم بالعلم والحكمة؛ لكونهم اعتمدوا على العقل المجرد، وجعلوه مرجعًا لعرض نصوص الكتاب والسنة عليه، وأما منهج السلف فمعلوم أنه اتباع الوحي والتسليم للكتاب والسنة، ومن كان هذا منهجه فهو أسلم وأعلم وأحكم، ومن نفى العلم والحكمة عن هذا الطريق والمنهج فإن مقتضى كلامه الطعن في النصوص نفسها؛ لأن السلف جعلوا الاتباع والتسليم للنص هو الضابط لهذا الطريق، فهو طريق السمع والطاعة وخشية الله سبحانه الذي بينته خواتيم سورة البقرة، وهو منهج الأنبياء والرسل جميعًا، ومنهج الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان، ولمز طريق هؤلاء بأنه يفتقر إلى العلم والحكمة كلام في غاية البطلان، وافتراء لا أساس له، ولا دليل عليه، وإنما مجرد شبهات علقت بأذهان أصحاب الفلسفة والمنطق الذين جعلوا العقل البشري القاصر حاكمًا على الوحيين، فيقبلون ما وافق أهواءهم وعقولهم المتناقضة فيما بينها أصلًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: (ولا يجوز أيضًا أن يكون الخالفون

أعلم من السالفين، كما يقوله بعض الأغبياء ممن لم يقدر قدر السلف، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها من أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم)[١].

وقال الكرمي رحمه الله: (وهذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة بمقدار السلف، فكيف يكون الخلف أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء وأعلام الهدى، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة)[٢].

وبهذا يتبيَّن -لك أخي القارئ- هشاشة هذه المقالة، وقدحها في منهج السلف الصالح، الذي هو (**السمع والطاعة والخوف من الله سبحانه**)، وهو منهج أهل السنة والجماعة على مر الأزمان، فلا ينبغي الترويج لهذه المقالة وأمثالها؛ بل يسعُ المؤمنَ ما وسع السلف رضي الله عنهم، من الاقتداء بهم في تعظيم النصوص واتباعها من غير معارضة لها بعقل أو قول فلان من الناس، والتسليم المطلق لما جاء فيها، وأن ما ورد فيها من خبر أو أمر فهو الحق كله والخير كله، وما ورد فيها من نهي وتحذير فمخالفته شر وضرر، أدرك ذلك العقل أم لم يدرك، ما دام قد ثبت النص وصحَّ طريقه.



---

(١) الفتوى الحموية الكبرى (ص:١٨٥).

(٢) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات (ص:٢٢٧).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فقد تم هذا الكتاب في بيان الضابط لمسمى أهل السنة والجماعة، وكذلك هو الضابط لما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام، وكذلك هو القول الفيصل في اتباع منهج السلف، والتمسك بهذا المنهج هو الذي به ينجو الإنسان، ويكون من الفرقة الناجية، والذي به يكون على منهج السلف الصالح، وهو المنهج الذي سار عليه جميع الرسل عليهم السلام.

هذا الضابط هو: (**السمع والطاعة للوحيين والخوف من الجبار**)؛ المأخوذ من أواخر سورة البقرة، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾[البقرة:٢٨٥].

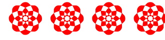
وفيه الخوف من الله تعالى والإقرار بالتقصير، والبعد عن العجب والكبر، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ كما سبق بيانه، فليس الانتساب للسلف والسلفية شعاراتٍ ترفع، أو جمعياتٍ وأحزابًا وألقابًا يتزين بها أصحابها، أفرادًا كانوا أو جماعات، بل هو تطبيق واقعي للامتثال بالوحيين سمعًا وطاعة في الأقوال والأفعال، ومنهج منضبط متبع سار عليه أهل الحق في كل زمان ومكان.

والله أسأل أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن نكون ممن سمع وأطاع لله تعالى ولرسوله ﷺ، وامتثل للوحي على هدى

من ربه؛ إنه سميع مجيب.

كما أسأل الله العلي القدير ﷻ أن يجعل هذا الكتاب نبراسًا لأهل العلم والدعاة، وأن يتضح به الحق من الباطل في نقد أهل العلم الذين أفنوا أعمارهم في دراسة كلام المولى ﷻ، واتباع ما فيه، وتقديمه على الأهواء والآراء، ودراسة أحاديث رسول الله ﷺ، مع اتباعه وتعظيمه وتوقيره ﷺ، ولكن حصل منهم بعض الزلل والخطأ في بعض المسائل بسبب البيئة التي عاشوا فيها، أو بسبب بعض الدلالات اللغوية، ونحو ذلك مما تسبب في عدم إدراكهم للحقيقة الناصعة الجلية، ولم يتعمدوا ردَّ النصوص بعقل أو فلسفة أو منطق، أو هوىً ونحو ذلك، **فيكون الحكم الفيصل على هؤلاء بالقول الفاصل الواضح الجلي من المولى** ﷻ: ﴿**وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ** ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



فهرست الموضوعات

الموضـــــــــوع الصفحة

الموضـــــــــوع الصفحة